دراسات قَدْمُس (3)

معركة القادسية

معركة اليرموك

معركة هليوبوليس

تطورات فنون الحرب الإسلامية

دور الجمل والخيل في الفتوحات العربية المبكرة

قَدْمُس للنشر والتوزيع

دراسات قَدْمُس (3): (1) معركة القادسية. 2) معركة اليرموك. 3) معركة هليوبوليس. 4) تطورات فنون الحرب الإسلامية. 5) دور الجمل والخيل في الفتوحات العربية المبكرة).

ترجمة: ميسون الحجيري

مراجعة: زياد منى

تصميم الغلاف: قَدْمُس للنشر والتوزيع

إخراج: ناهلة الكايد (قَدْمُس للنشر والتوزيع)

قَدْمُس للنشر والتوزيع

دار المهندسين (0905) – الفردوس

ص. ب :6177

دمشق، سورية

هاتف: 9836 222 (11- 963+)

براق: 7226 224 – 7393 442 (11- 963+)

بريد إلكتروني: cadmus@net.sy

التوزيع خارج سورية:

شركة قدمس للنشر والتوزيع (ش. م. م)

ص.ب: 113/6435

شارع البصرة (بناء قرطاس) – الحمرا

بيروت، لبنان

هاتف: 054 750 (1-961+). براق: 053 750 (1-961+)

بريد إلكتروني: alfurat@inco.com.lb

يمكن الاطلاع على كتب الدار ومنشوراتها في صفحة الدار على (الشبكة) www.cadmus-books.com. انظر أيضاً: www.alfurat.com

تأشيرة الرقابة: 47159 – 46486 – 46485 – 46479 – 47308.

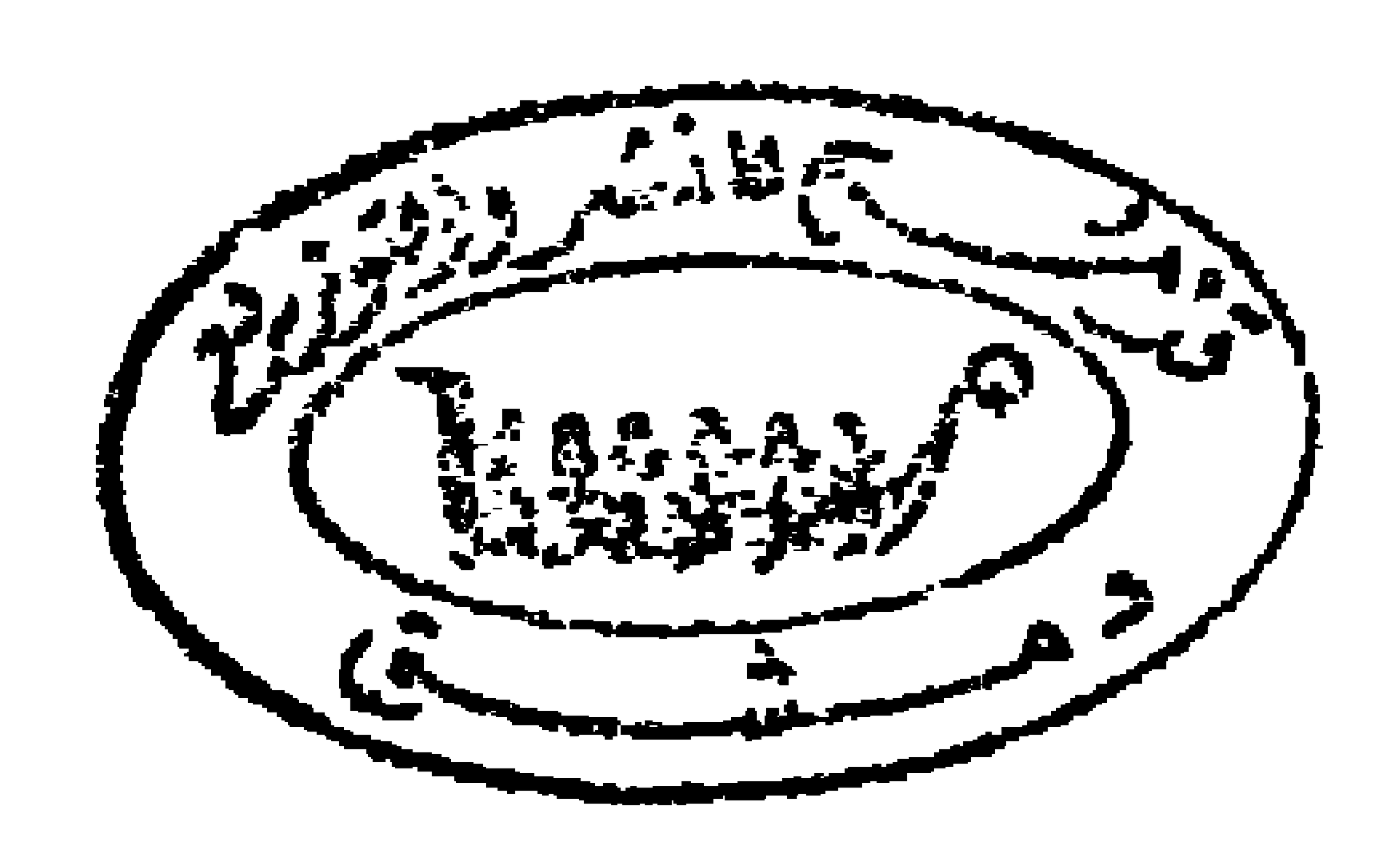
معركة القادسية

معركة اليرموك

معركة هليوبوليس

تطورات فنون الحرب الإسلامية

دور الجمل والخيل في الفتوحات العربية المبكرة



المحتوى

مقدمة الناشر 7

1) معركة القادسية 9

خريطة معركة القادسية 47

2) معركة اليرموك 53

خريطة معركة اليرموك 71

3) معركة هليوبوليس 79

خريطة الطريق إلى مصر 91

خريطة دلتا النيل 92

4) تطورات فنون الحرب الإسلامية 101

5) دور الجمل والخيل في الفتوحات العربية المبكرة . . . 121

مقدمة الناشر

نقدم كتيبنا هذا إلى القارئ العربي، ضمن سلسلة «مكتبة قدمس» التي تضم مجموعة منتقاة من الأبحاث القيمة التي أنجزها علماء قديرون ونشروها في دوريات ومجلات متخصصة غالباً لا يتمكن القارئ العربي من الاطلاع عليها بسبب عدم توافرها في سوق الكتب.

وقد اخترنا لهذه المجموعة خمسة مقالات تبحث في موضوع عام واحد هو معارك العرب الكبرى في صدر الإسلام. ونحن نهدف من اختيارنا هذا تنمية وعي القارئ العربي بمسائل جوهرية ذات علاقة بتراثنا، لكن على أسس علمية صلبة بعيداً عن الخطاب الحماسي الذي غالباً ما يتحكم في الكتابات عن الموضوع التي اطلعنا عليها. ونحن نأمل أن يسهم عملنا هذا في تشجيع بحاثة عرب الخوض في هذه الموضوعات وما يرتبط بها من مسائل علمية، والإسهام في إعادة صياغة قراءة بعض جوانب تاريخنا القديم، وكتابته، حيث وجب. ولا يغيب عن ذهن القارئ بالطبع أننا، وعلى الرغم من اختيارنا لهذه المواد، لا نتبنى بالضرورة كل جوانب التحليلات الواردة في مختلف المقالات التي سننشرها، على الرغم من اعتقادنا بأن ما نقدمه من أعمال في هذه المجموعة يتمتع بدرجة جيدة من الموضوعية العلمية.

معركة القادسية*

تتميز معركة القادسية في مدونات العصر الإسلامي الأول لكونها مثالاً لمواجهة ضخمة، مركزة، ومحكمة التخطيط مع قوة أجنبية عظمى، خططت لها قيادة مركزية تخطيطاً كاملاً وشاملاً، وأنجزها بكل دقة وأمانة في أرض الميدان، قائد رابط الجأش. لقد تخللت القادسية مناوشات صغيرة ومتفرقة، وقد كانت هذه المعركة ذروة الجهود التي بذلتها الجيوش الإسلامية المتفرقة منذ بداية العام الثاني عشر للهجرة، من أجل دخول أراضي السواد الحدودية الغنية على طول نهر الفرات الأوسط والسفلي، والتي كانت تشكل تابعاً حصيناً للإمبراطورية الساسانية. لقد كانت المعركة غاية في الأهمية بنتائجها، لأنها دمرت بشكل نهائي معنويات الفرس وعظمتهم، رغم أن القضاء التام على إمبراطوريتهم لم يتم إلا بعد انقضاء بضع سنوات. إن أكثر ما يسترعي الانتباه في هذه المعركة، هو أن أحداثها تكشف عن خطة محكمة، وبرنامج محكم وأسلوب واع عند العرب الذين لم يحققوا هذا الانتصار نتيجة شجاعتهم المفرطة، أو إيمانهم المطلق وحسب. إن ما يميز هذه الحملة، هو الاهتمام غير العادي بقضايا الاستراتيجية، وقضايا المناورة والإمدادات والتنظيم الإداري. كل هذه شواهد على نبوغ عمر بن الخطاب العسكري الذي أدار العملية

برمتها. لا شك أنه لولا أن الإسلام أعطى العرب، ولأول مرة، الدوافع الأساسية لأي هجوم ضخم وكاسح، أي لولا أنه أمن لهم حكومة مركزية محلية، لما تهيأت لهم الفرصة لتجربة سلاحهم والقيام بقتال حاسم ضد قوى مركزة لأي دولة أجنبية عظمى. إن المواجهات العنيفة بين قبائل العرب، بغض النظر عن معارك الغزو، كانت بطبيعتها غير كافية لتعليمهم التقويم الاستراتيجي ووسائل أخرى متعلقة بالهجمات الكاسحة والحروب المطوّلة. لكن مع تغير الأوضاع، تطلّب الأمر طرقاً جديدة للتخطيط، وبرهن المسلمون عن قدرتهم على ذلك، خصوصاً في الحروب الأولى بقيادة عمر، هذا ما سنراه في معركة القادسية.

خلفية العلاقة العربية الفارسية

إن المتتبع لأحداث التاريخ يرى أن القبائل العربية المهاجرة كانت على مر العصور تتجمع حول البحرين وهجر، متنقلة نحو الشمال بمحاذاة الجانب الشرقي من جزيرة العرب الموحشة. وقد اندمجت في هذه المنطقة عدة قبائل تحت اسم تنوخ. وهي ظاهرة لم يسبق لها مثيل، تعبر بشكل قوي جداً عن شعور بالأمن الجماعي أثاره على الأرجح الخوف من احتمال قيام صراع مع أمة غريبة. لقد أصبحت القبائل اليوم على استعداد لاجتياح أراضيها، إذ لم تكن هجماتها على مواطن الخليج العربي بالقليلة. كانت القبائل المهاجرة تختار الممر الأضعف مقاومة، وتتغلغل على موجات متتالية، وعلى فترات زمنية متباعدة، في اتجاه الشمال الغربي على طول مجرى الفرات، حتى وصلت إلى بلاد ما بين النهرين لا

بل تجاوزتها. وتميزت المنحدرات الواقعة غرب الفرات والممتدة بين الحيرة والأنبار بكثرة النبات وبالجداول الغزيرة والتربة الغنية بالخضرة والمناخ اللطيف فكانت أكثر الأماكن ملاءمة للعرب. وما لبثت أن أصبحت معقلاً لهم بعد ذلك بفترة قصيرة. كان الدخلاء في هذه المنطقة مصدر إزعاج للسكان الأصليين، فباتوا على وجه التحديد غير مرغوب فيهم. ورغم أنهم تأقلموا بسرعة مع حياة الاستقرار في محيطهم الجديد الغني والخصيب، إلا أنهم حافظوا ودون أي انتقاص، على الروح التقليدية للمغامرة والرزية التي ولدتها لديهم على مر العصور، ظروف الحياة الخاصة في موطنهم داخل الصحراء. لذلك كانوا غالباً ما يميلون للغزو على الطريقة العربية لأراضي بابل الغنية بالزراعة، والمقاطعات المجاورة التابعة للأسياد المحليين، والواقعة على الضفة الأخرى من الفرات. لم يكن السكان المحليون نداً للعرب في هذه الغزوات الكاسحة، التي ما انفكت تجتاحهم كالأعاصير، في أي وقت ومن دون سابق إنذار. لقد تميز العرب بدهائهم في استغلال أي ضعف يطرأ على الجبهة الفارسية الداخلية، بحيث أن تدفقهم نحو العراق حدث في فترة كانت فيها بلاد فارس مقسمة إلى عدة مقاطعات صغيرة. لكن الفرس تحملوا مثل هذه الأعمال العدائية طالما أنهم لم يكونوا قادرين على جمع قوة كافية لمواجهة العدو. ما أن استتبت أمورهم وأعادوا النظام لبلادهم، وحققوا وحدة كافية في الإمبراطورية حتى أطلقوا حملات تأديبية ضخمة أعادت، وبضربة واحدة، الدَّين المتراكم من الانتقام المرير مع فائدة مركبة، متمثلة بأشنع الأعمال الوحشية التي يمكن تخيلها في ذلك الزمن البربري.

تشكل حروب سابور الثاني، الذي لا يزال يذكر باسمه المهاب المستعار (ذو الأكتاف)[1] هي الشاهد النموذجي على ذلك. في الأصل، لم يكن التنظيم السياسي والاجتماعي عند العرب سوى تحالف قبائل، حاولت فيما بعد، وتحت ضغط التعامل مع الفرس تطويره إلى دولة. ولكن كيف استطاع العرب آنذاك أن يأملوا في إدارة موارد بشرية وعتاد كالذي كانت تتمتع به الإمبراطورية الفارسية الواسعة الأطراف؟ من ناحية أخرى لم يكن باستطاعة الفرس، رغم ثقتهم الدائمة بتفوقهم العسكري، أن يقودوا جيشاً نظامياً كبيراً لمواجهة العرب الذين يتمتعون بروح تقليدية لا تقوى عليها المجازر. في الوقت ذاته، أظهرت الحروب الطويلة بين الروم والفرس الأهمية الاستراتيجية لسكان الحيرة في مواجهة الغساسنة في سورية. وهكذا تأصلت معادلة طبيعية في العلاقة بين الشعبين على شكل تفاهم ودي دائم، يعترف بمقتضاه العرب للأكاسرة بالسيادة عليهم. ويرتبط ذلك بالدفاع المشترك عن الإمبراطورية، على أن يحصلوا بالمقابل على حرية في إدارة شؤونهم الداخلية، مع مساعدات عسكرية وغير عسكرية لتقوية وتوسيعها سيطرتهم على الأراضي الحدودية.[2]

في هذا الإطار حدث أول اتصال بين العرب والفرس. والانطباع الذي تكون خلال فترة الاحتكاك الأولى لم يكن لينتهي بسهولة، بل كان قوياً كفاية ليبقى، ويستمر حتى في الأزمنة التي سنتحدث عنها هنا. نظر الفرس من ناحيتهم نظرة ازدراء إلى العرب، بسبب الفقر المدقع والنقص الواضح في العتاد والتنظيم لقواهم العسكرية. كان العرب بالنسبة إليهم أناساً أجلافاً،[3] فقراء في غالب الأحيان. ولعدم امتلاكهم

حكومة تحضنهم وتسوسهم، لم يكن باستطاعتهم جمع قوة كافية للمواجهة مع الفرس، رغم أنهم شكلوا مصدر إزعاج كبير لها، بسبب هجماتهم الخاطفة، مما جعل من الأفضل للفرس أن يجنحوا إلى إنصافهم وتهدئتهم بالتنازلات والمنن. هذا التقدير كان مبنياً على وقائع حقيقية وتجربة فعلية راهنة. ومن الطبيعي أن يقابل ذلك بالتقدير في أذهان العرب. أولاً، كان لدى العرب هاجس العجز أمام السلاح والعتاد والتنظيم العسكري الفارسي، لكنهم لم يرضخوا لأحد لاشتمال نفوسهم على الإباء والشمم والاعتداد بالنفس.[4] كانت الدعوات من مناطق نائية في جزيرة العرب كالتي وجهها سيف بن ذي يزن للتدخل في حرب مدمرة للطرفين، والاستماتة التي دخل فيها العرب في معركة ذي قار، تعبيراً عن نفس الخشية من القوى العظمى. وحتى بمناسبة معركة الجسر، فإن الدعوة للتطوع مضى عليها ثلاثة أيام دون أن يستجيب لها الناس، إلى أن تمّ اتخاذ إجراءات خاصة لطمأنتهم بأن بأس السلاح الفارسي لم يعد سوى أسطورة.[5] ثانياً، كان العرب مبهورين بغنى الفرس وازدهار بلادهم وخصب أراضيهم، حتى أنهم اضطروا مراراً للجوء إليها في الأوقات الحرجة، كما فعل حاجب بن زرارة صاحب القوس. لكن مهما تخوف العرب من السلاح الفارسي، إلا أنّهم لم يكنّوا أي مهابة للفرس أنفسهم. كما أنهم لم يسمحوا أبداً، ولا بأي شكل من الأشكال بأن يهتز شعورهم القوي بالفخر بأصولهم وبأعراقهم. والدليل على ذلك، أنهم ازدروا الكثير من العادات الاجتماعية الفارسية واحتقروها، كالعادة الفاسدة المسماة (الفارسية) وهي زواج الرجل من ابنته أو أخته. وقد كانت وصمة عار دائمة لأي فرد

عربي يقع فيها.[6] إن إيمانهم الرجولي بتفوق معاييرهم القومية بقي سالماً رغم أنهم، وإلى حد معين، قد قلدوا جيرانهم الأكثر حظاً في حب البذخ والعادات الملوكية.

وهكذا، فإن العلاقات بين الشعبين قد نمت وتطورت لترقى إلى درجة الثقة المتبادلة وعلاقة المصالح. من جهة أولى قام العرب بدورهم كاملاً تجاه الساسانيين، وعند تعرض هؤلاء للتهديد الخارجي، وقفوا بصدق إلى جانبهم. من ناحية أخرى، فإن أكاسرة الفرس عاملوا العرب باحترام كبير، ولم يترددوا حتى بتنشئتهم وتربيتهم كأمراء من السلالة الملكية، بحيث أصبح وضعهم قوياً إلى درجة الاعتراف بهم في قضية وراثة الإمبراطورية. إلا أنّ هذه التحوّلات تم تعطيلها بسبب السياسة غير الحكيمة، التي أفرزتها الدسائس التي كانت تحاك في البلاط على عهد الساسانيين المتأخرين، الذين أدت سياستهم المتقلبة والمتعجرفة والاستبدادية إلى جفاء العرب وقطع ولائهم لهم، إلى حد أنهم وجدوا من الضروري استبدال الحكم الصوري للملوك العرب بحكم مباشر من خلال نائب الملك الفارسي. تفاقم عنف المشاعر العربية وبرز من خلال هجمات وحشية، إلى حد أنهم في إحدى المرات أحرقوا زوارقهم وزجوا أنفسهم في المعركة بذي قار بزخم انتقامي واستماتة مفرطة، حتى أن الجيش الفارسي سحق بكامله. هذا الانتصار الاستثنائي الذي كان أول فرصة انتصف فيها العرب من عدوّهم واستردوا استحقاقهم من غير العرب، كما ذكر الرسول نفسه، أثار روحاً جديدة بينهم. ولكنه لم يكن كافياً في ذلك الوقت ليعطي أي أمل بالتخلص من حكم السلطة الأجنبية الممقوتة. كل ما كان باستطاعة العرب أن يفعلوه هو

الانحراف قليلاً نحو الأراضي الحدودية حيث بدءوا يغذون أحقادهم الدفينة. وهكذا نرى أنه في ظلّ هذه الأحوال، كما في أحوال أخرى، أتى الإسلام في الظروف النفسية الملائمة، فشنّت الحملات ضد الفرس في وقت كان الناس فيه متشوقين للتخلص من الابتزاز، ومن تعالي الحكم الساساني وظلمه. إن طغيان بعض النبلاء الفرس، بالإضافة إلى انجذاب حاشية رستم لوصف ظاهرة المساواة الاجتماعية بين العرب، كانت مؤشرات حتمية لأن الوقت موات لقيام نظام جديد.

أما بالنسبة إلى ما تبقى من جزيرة العرب، فإن طموحات الفرس كطموحات منافسيهم من الرومان، كانت محدودة بسبب العوائق الطبيعية التي أربكت براعتهم ومواردهم. فلم يكن باستطاعتهم أن يبسطوا سلطانهم إلا في مناطق محدودة مثل بعض سواحل الخليج العربي ومناطق من اليمن، مستغلين طلب سيف بن ذي يزن لمد يد المساعدة. ويبدو أن المدينة كانت في بعض الأحيان تدفع إتاوة للأكاسرة.[7] في أي حالٍ كانت اللثمية تقام في كل سنة لتذكير عرب الداخل تذكيراً قاسية بالعظمة والغنى المادي لفارس. وكان كسرى يهتمّ بتنظيمها بشكل خاص كما لو أنها مسألة هيبة بالنسبة إليه.

عندئذ أصبحت مسألة تدمير مراكز النفوذ الفارسي البعيدة عن مركز القيادة الرئيسي هي الهمّ الأوّل للدولة الإسلامية الجديدة. وقد تمّ ذلك من دون صعوبات تذكر، لأنه ولحسن الحظ الوضع الداخلي الضعيف في بلاد فارس إبان هذه الفترة ليسمح بإرسال ما يكفي من تعزيزات. لكن الصدام مع الإمبراطورية الفارسية كان أمراً حتمياً. لقد أمّن الرسول بنفسه أوّل الدوافع الثابتة لهجوم عربي إذ أثار

أكثر من أي شخص آخر اهتماماً شديداً بثروات فارس (سورة الروم) ليخلق وعياً للمجازر الوحشية التي ارتكبها الفرس، والغطرسة التي مارسوها، وأهم من كل ذلك المعتقدات الوثنية الفارسية، وهي أكثر وثنية من معتقدات الرومان، وليزيل من خلال أحاديثه ووعوده كل أثر للرعب من الساسانيين. ذلك الرعب الذي كان راسخاً في أذهان العرب على مدى قرون مضت. كما كان توحيد الإسلام جزيرة العرب بأكملها تحت حكم أبي بكر الصديق ثاني العوامل أهمّية لمغامرة كهذه. وهكذا أنشئ ولأول مرة في تاريخ الجزيرة جيش وطني يأتمر بأوامر قيادة مركزية موحدة. لكن لا بدّ من الإشارة إلى أن العرب كانوا لا يزالون يعانون نقصاً في الرجال والعتاد. وآخر الشروط التي لا بدّ من توافرها للنجاح، كانت الاستراتيجية والحكمة في القيادة (طبعاً، بالإضافة إلى الإيمان القوي والزخم الجهادي) الأمر الذي قد يضمن نصراً في ظروف صعبة. هذه الاستراتيجية ابتكرها، كما سنرى، النابغة العسكري عمر ابن الخطاب، بمساعدة قادة عرب آخرين يتمتعون بتجربة عملية في القتال مثل المثنى بن حارثة الشيباني.

إن نظرة خاطفة على الخريطة الطبيعية، ترينا أن حدود صحراء النفود تترك للعرب إمكانية سلوك خطين فقط للصدام مع الفرس: يمتدّ الخط الأول على طول وادي الرمة المؤدي إلى منطقة الأبلة، ويمتدّ الثاني على طول طريق القوافل القديم عبر الصحراء من وسط الجزيرة إلى منطقة النجف. كان الخط الأول مسرحاً متقادم العهد للصدام بين الطموحات المتنافسة للشعبين، في حين شكل الآخر طريقاً سريعاً للوصول إلى

قلب الإمبراطورية الساسانية. في أوائل السنة الثانية عشرة للهجرة، أرسل أبو بكر الصدّيق خالد بن الوليد إلى جبهة الأبلة بعد أن سحق هذا الأخير ثورة اليمامة. كانت خطته أن يأخذ أطراف الإمبراطورية الساسانية الواقعة على طول الفرات بواسطة ما قد نسميه اليوم فكي كماشة، أي بذراعين ممتدتين من الأسفل (الأبلة) ومن الأعلى (النجف) ثمّ يكون المسير نحو المدائن بعد تأمين المؤخرة. لم تنجح حركة الكماشة هذه، لأنّ الرتل الآخر بقيادة عيّاض بن غنم تعثر عند دومة الجندل ولم يستطع الوصول إلى هدفه في النجف حتى خفّ خالد بن الوليد لنجدته. وكان من نصيب هذا القائد أن يجتاح كل الطف من البصرة حتى الأنبار والفراض قبل رحيله إلى الشام في أوائل العام الثالث عشر للهجرة. وقد كان خالد خاض عدة مواجهات مع قادة عسكريين وإقطاعيين وقادة محلّيين مثل جابان، وبهمن، وقارن، وهرمز، وشيرذاد. وقد اتحد بعضهم فيما بينهم تحت الضغط المباشر من الحكام المركزيين. لكن لم تتعدّ أهمية انتصارات خالد هذه المستوى المحلي، في حين لم تكن التعبئة العامة للقوات الإمبراطورية قد بدأت بعد، الأمر الذي لم تكن تسمح به الفوضى الداخلية في بلاد فارس. ولكن هذه التعبئة أتت سريعاً ربما أكثر مما كان متوقعاً لها. مع أنّ مكاسب الحرب لم تكن لصالح المسلمين دائماً، بسبب استنفاد قواهم بعد رحيل خالد، وقيام العدو بتقوية المقاومة من جانب آخر، إلا أنّ مثابرتهم الباسلة في الهجوم، التي توجت بالنصر عند البويب في شهري شعبان ورمضان في السنة الرابعة عشرة للهجرة، حققت أكثر من مجرّد الانتقام لكارثة الجسر في السنة السابقة، ودفعت إلى

استنفار كامل في بلاد فارس. وكما كان يحدث دائماً فإن ضغوط الخطر الخارجي أدّت إلى تلاحم صفوف الفرس تحت قيادة الملك الصغير يزدجرد الثالث، فاستنفروا لملاقاة العرب في مواجهة هائلة. من الواضح أنه كان جهداً يصعب ضبطه إذ ألهب حماسة الإمبراطورية بكاملها، وكان له من وجهة نظرنا تأثير قوي وسلبي على سكان الطف الذين أصبحوا تحت سلطة المسلمين. هؤلاء السكان، ورغم معرفتهم أصولهم العربية، وموالاتهم لقضية شعبهم وتفضيلها على قضيّة الفرس،[8] إلا أنّ الرّعب الذي كان يملأ قلوبهم، والناتج عن قرون من التسلط الفارسي، أقنعهم بأن التحضيرات للحرب تحت إمرة يزدجرد الثالث تؤكد أنّ النصر النهائي إنما هو للفرس. وبالتالي فقد تلهفوا لتأمين موقفهم. فانتفضوا خلال الأشهر الأخيرة من السنة الرابعة عشرة للهجرة، بعد معركة البويب بقليل، ودحروا القوى الإسلامية على مساحة واسعة، وأجبروها على الانسحاب من مراكزها المنتشرة حتى نقطة قريبة من ذي قار، حيث ضرب المثنى معسكره. سمح هذا الهجوم المظفر للفرس بإعادة حامياتهم على وجه السرعة ونشرها على طول خط الدفاع المحصن القديم، الذي أنشأه الساسانيون الأوائل على امتداد الحدود العربية الفارسية، الممتدة من القطقطانة (على الأطراف الغربية للكوفة) وحتى جبال الغذي قرب البصرة. عند معرفة عمر بتحول الأوضاع على هذه الصورة المسرحية، الأمر الذي كان سيدفع بأي رجل أضعف منه إلى اليأس، أمر هذا الأخير المثنى بوضع فرق صغيرة بمواجهة الفرس في نقاط محمية بوديان صغيرة وجداول على الحدود التي من جانبه، لتمكينه من مراقبة الخط بكامله

بواسطة دوريات. في ذلك الوقت بدأ التحضير بشكل هستيري لمواجهة التحدي الفارسي، فأعطى المثنى سلطة دعوة كل الرجال القادرين من أفراد القبائل المجاورة إلى الحرب، وحتى الضغط عليهم إذا استدعى الأمر ذلك. في الوقت عينه، أرسل رسالة باسمه إلى جميع الولاة في المناطق المختلفة طالباً إليهم إرسال قوات الاحتياط مباشرة إلى الجبهة الأمامية إذا كانوا في مواقع أقرب إلى الجبهة منها إلى المدينة، وإذا كان الوضع غير ذلك فليرسلوها مباشرةً إلى العاصمة.

مع ابتداء العام الرابع عشر الهجري، عندما كان التطوع للقتال قد قطع شوطاً كبيراً، خرج عمر بالناس إلى صرار على بعد ثلاثة أميال من المدينة حيث ألقى خطاباً دعاهم فيه لإعطائه النصح في ما يخص تطورات الأحداث. فرأى الناس أنه من أجل الحفاظ على معنويات الجند، يستحسن أن يذهب الخليفة إلى الجبهة بنفسه، وهي رؤية لم ترق لعمر، ولكن سمو أخلاقه دفعه لموافقتهم على أن يكون ذلك مؤقتاً، وحتى يجيء رأي آخر هو أمثل من ذلك. بعد ذلك قدم المسألة في اجتماع لأهل الرأي والصحابة دعي إليه بشكل خاص علي بن أبي طالب الذي كان قد استخلفه على المدينة، وطلحة الذي كان قد بعثه على مقدّمة الطلائع إلى الأعوص. أجمع الكل على أنه من التهور المخاطرة بهذا الشكل في مستهل الحملة، وأنه من الأفضل أن يبقَ الخليفة لتنظيم عصب الحرب في صراع قد يطول أكثر من المتوقع. في اليوم التالي اعتلى عمر مرة أخرى المنبر وأذاع قرار أهل الرأي في كلمات تستحق النقل الحرفي بسبب المبدأ الأساسي للإدارة المذكور في هذه المسألة، فقال:

«. . . وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا أمرهم شورى بينهم وبين ذوي الرأي منهم، فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم، ومن أقام بهذا الأمر تبع لأولى رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعاً لهم. يا أيها الناس إني إنما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج».

نتجت عن القرار الجديد مشكلة اختيار (قائد) مناسب. لكن رسالة سعد بن أبي وقاص، الذي كان عاملاً على صدقات نجد، جعلت المستشارين يقترحون اسمه بقوة على عمر الذي كان لا يزال يفكر في المسألة، والذي لم يكن سعد بالنسبة إليه سوى (الأسد في براثنه) و(الأسد عادياً). وافق عمر وعيّن سعد قائداً للجيش، ولكنه وكما أظهرت الأحداث، لم يكن يثق به في ما يخص التخطيط وإدارة الحرب، ربما لأنه كان يعرف أن العمل الاستراتيجي كان يتطلب صفات أخرى كثيرة غير تلك المتوافرة في (الأسد). وودّع الجنود بخطبة ألح فيها على الصفات الحميدة المتمثلة بالصبر والتقوى والتواضع، وأوصى سعد أن يقيس رضي الله عنه من خلال رضى الناس عليه، كما أوصى الجنود ألا يترددوا في توجيه الشكاوى إليه، لأنه يرى من واجبه النظر فيها. إضافة إلى ذلك رافق عمر سعدا لعدة أميال صعوداً إلى الأعوص. عندئذ، أكمل سعد مباشرة إلى زرود، وضرب أول معسكر له هناك، أو كما تقول بعض الروايات في الثعلبية، المحطة التي تلي زرود، وهي منطقة تقع على مسافة ثلاثمئة وعشرين ميلاً غرباً من المدينة (أكثر بقليل من ستمئة كيلومتر، أي حوالي سبعين ميلاً بعد منتصف

الطريق إلى القادسية). شكلت زرود محور منازل التميميين والأسديين في تلك المناطق. لهذا كانت ملائمة بشكل خاص مركزاً لتسريع تحضيرات التطوع وإكمالها، التي قد كانت بدأت في هذه القبائل منذ وصول رسالة عمر إليهم. رغم أن التسلسل الزمني لأحداث معركة القادسية غير موثوق به، لكن مما لا شك فيه أن سعداً قد بلغ زرود في مطلع الشتاء بداية السنة (14 هـ/ (636) للميلاد، وهذا التوقيت، بالإضافة إلى الأحداث المتتالية المعتمدة عليه، يتلاءم إلى حد بعيد مع مقتضيات الطقس فيما يتعلق بمختلف مراحل التحضيرات والعمليات الحربية. خرج سعد من المدينة على رأس جيش يكاد يصل عدده إلى أربعة آلاف مقاتل، ويشتمل على المقاتلة وغير المقاتلة (أي النساء والأولاد). وقد أتى ثلاثة آلاف من عناصره من اليمن والسّراة، أما الباقون فجاءوا من أنحاء أخرى من البلاد. أدت جهود سعد خلال إقامته في زرود، والتي استمرت عامة الفصل البارد (أي ليس أقل من ثلاثة أشهر) إلى تدعيم الصفوف بإضافة سبعة آلاف مقاتل (أربعة آلاف من بني تميم والرباب وثلاثة آلاف من بني أسد) وهم الذين، وبحذر بالغ، أمروا بالانتظار في الشمال بين أراضي جزيرة العرب القاسية وسهول السواد الخصبة، حتى يتم استدعاؤهم للانضمام إلى الجيش في مكان أكثر مناسبة وأقرب إلى الحدود. مع نهاية الفصل البارد نقل سعد معسكره إلى الأمام نحو الشراف بعد إرساله قوة من خمسمئة مقاتل بقيادة المغيرة بن شعبة إلى منطقة الأبلة (وكانت تسمى فرج الهند) من أجل حماية الجناح من أي تحرش قد يأتي من تلك التخوم، ولقطع كل النجدات التي قد تصل إلى الفرس من ذلك الاتجاه

أكمل المغيرة طريقه للانضمام إلى جرير بن عبد الله البجلي، الذي كان يقوم بدوريات مع رجاله في الغضي[9] والجبال القريبة من البصرة، بينما انتظر سعد تعليمات عمر بالنسبة إلى الخطوة التالية. كانت الشراف على مسافة أقل من أربعة وثمانين ميلاً من القادسية، وكان واضحاً أن الخطوة التالية للجيش الإسلامي هي مواجهة الدوريات المتمركزة في المعسكرات المحصنة على طول حدود الطف، ولذلك كان من الضروري أن يترك الجيش تلك المنطقة بسرعة، وبتعبئة وجهوزية كاملتين، وبتنظيم شامل للمعركة. لذلك أصدر عمر تعليمات تقضي بأن تجتمع كل القوات المتطوعة حديثاً، والتي كانت متمركزة في عدة نقاط، بالإضافة إلى القوات الأولى المتبقية تحت إمرة المثنى في الشراف للقيام بمراجعة عامة. وتطبيقاً لمخطط معركة مركزة، تم سحب كل الدوريات المنتشرة عند حدود السواد بما في ذلك قوات المغيرة، التي لم يعد لتواجدها أية فائدة. كان عدد الجنود قد بلغ في هذا الاستعراض الأخير ثلاثين ألفاً تقريباً.[10] بالإضافة إلى أحد عشر ألف مقاتل أتينا على ذكرهم سابقاً. أرسل عمر تعزيزات من ألف مقاتل قيسي وألفي مقاتل يمني فبلغ عدد هؤلاء المتطوعين الجدد أربعة عشر ألف مقاتل. وقد انضم إليهم أكثر من اثني عشر ألف محارب قديم كانوا هناك من قبل على الجبهة تحت قيادة المثنى بن حارثة.[11] وتنفيذاً لعهد عمر بأنه سيواجه أمراء الفرس بأمراء العرب، كانت هذه القوات مؤلفة من خيرة وصفوة المسلمين، من وجهاء، وشعراء، وخطباء، ورجال بأس وحكمة، وشجاعة، ودهاء. كما ضمت الصفوف أعداداً كبيرة من قبيلة ربيعة الذين اعتبروا الأكثر

عداء للفرس بسبب قرب مواطنهم وخبرتهم القديمة بهم، حتى أنهم اكتسبوا اسم ربيعة الفرس أو ربيعة الأسد. كذلك كان بينهم أكثر من سبعين رجلاً من البدريين، وأكثر من ثلاثمئة من الصحابة الذين رافقوا الرسول منذ بيعة الرضوان، وثلاثمئة من الذين شاركوا في فتح مكة، وأتى من كل القبائل سبعمئة من أولاد الصحابة.

أما بخصوص السؤال المهم المطروح حول تنظيم الجيش الإسلامي، فقد حالفنا الكثير من الحظ بحصولنا على النص الذي يتضمن كافة تعليمات عمر إلى سعد بكل تفاصيلها، والتي قام سعد بتنفيذها قبل رحيله من الشراف. إن الدراسة المتأنية للوثيقة تظهر أنه كان:

1) لكل عشرة جنود عريف، وهذا التقليد متبع منذ أيام الرسول.

2) لكل قبيلة أو قسم مهم منها حامل راية، وشرف حملها يعود للذين تميزوا بخدمة الإسلام، وليس بالضرورة لشيخ القبيلة. يذكر أن الإسلام اتبع التنظيم القبلي للعرب لأهداف عسكرية تنظيمية، وأن كل قبيلة قاتلت تحت راياتها. إن امتلاك أكثر من راية واحدة كان دليلاً على القوة غير العادية وعلى أهمية القبيلة.

3) لكل عشر وحدات قائد[12] وقد قسم الجيش بكامله إلى أعشار وبالتحديد إلى:

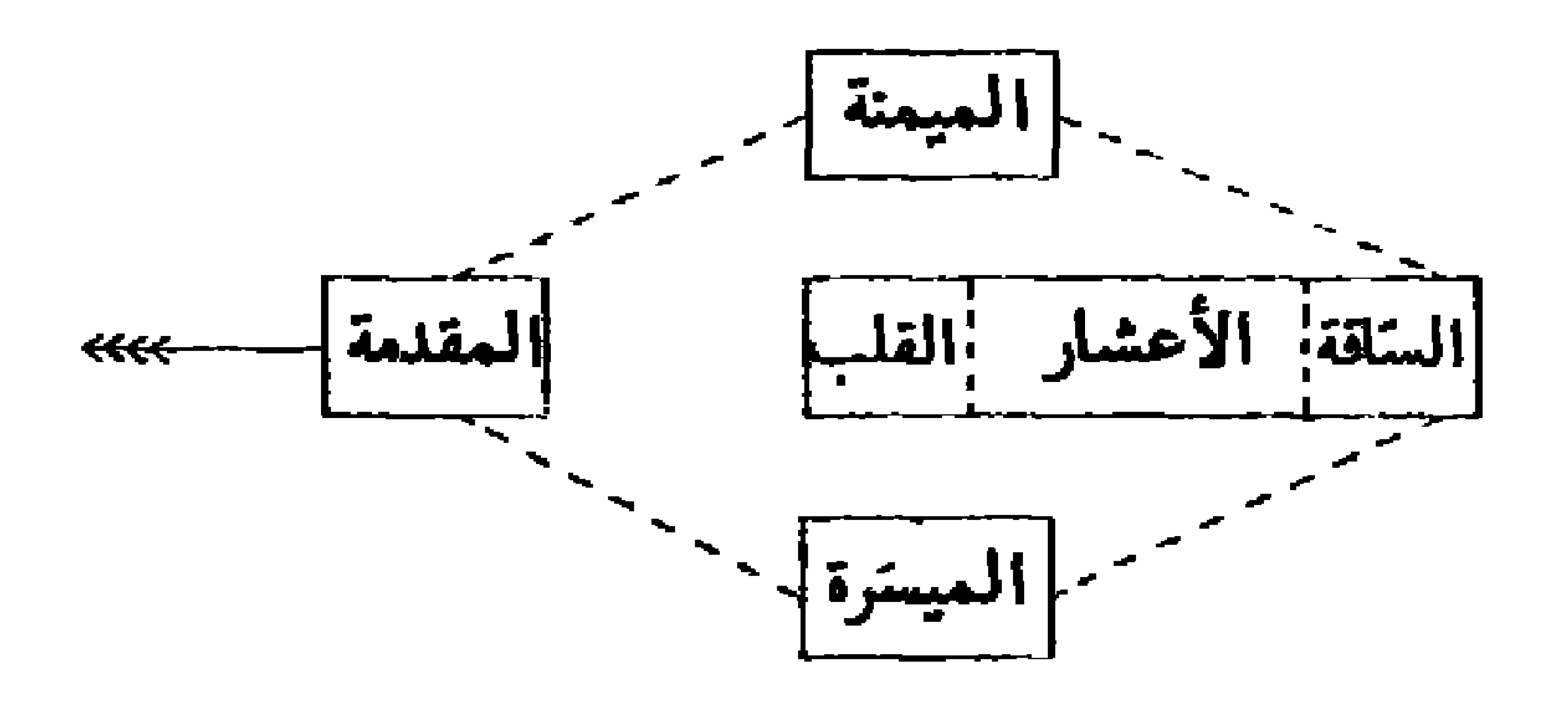
1- المقدمة أو الطليعة.

2- الميمنة.

3- الميسرة.

4- القلب.
5- الساقة.
6- الطلائع المؤلفة من وحدات صغيرة من الخيالة الخفيفة التي لا تتعدى العشرة بشكل عام، وقد استخدمت للأعمال الاستطلاعية.
7- الراجل أو الراجلة، وهم من المشاة.
8- الركبان أو فيلق الجمال. لكن العرب قلما حاربوا من على ظهور الجمال، لأنها لم تكن ملائمة، غير أنها استخدمت لنقل الجنود.
9- المجردة وهي قوة خاصة مختارة من نخبة الفرسان ومخصصة للطوارئ، أي مثلاً لتعزيز نقطة ضعف.
10- المرامية أو فيلق النبّالة.

شكلت الفرق الثلاثة الأوائل أجنحة منفصلة، وكان قادتها يسمون بأمراء التعبية،[13] أما أنا فسأسميهم قادة الأجنحة. لقد تمتع هؤلاء بأكبر مقدار من السلطة، وكانوا موضع ثقة، ويتمتعون بحرية تقدير الأوضاع العسكرية ومواجهتها أكثر من قادة الوحدات المتبقية، وقد أطلق عليهم اسم أمراء الأعشار، وكانوا يتلقون أوامرهم من القائد الأعلى مباشرة. ويعتبر هذا الأمر طبيعياً لأن الأجنحة كانت تضطر للابتعاد عن القلب حيث يقف القائد الأعلى، بينما يبقى القادة الباقون متصلين بشكل مباشر به، ولذلك فهم في تصرفه. أما الساقة أو مؤخرة الجيش فقد شكلت في هذه الفترة الذيل أو الطرف الآخر للقلب، إلا أنها تطورت فيما بعد لتصبح جناحاً مستقلاً مثل المقدمة. لذلك كان الجيش الإسلامي وهو يتحرك على هذه الصورة:



من الملاحظ أن التنظيم أعلاه علمي للغاية، فهو يؤمن الحماية من الهجمات من كل الجهات. أما قيادة الجيش فكما ذكرنا بالتفصيل، تتدرج على الشكل الآتي: القائد الأعلى (الذي كان يوكل أحياناً نائباً عنه كما في الحالة التي نحن في صددها) ثم أمراء التعبية، فأمراء الأعشار، وأصحاب الرايات، وقادة وفرسان القبائل.[14] والجدير بالذكر أن العرفاء لم يتم ذكرهم نهائياً في هذا التسلسل، لأنه لم يكن لهم سلطة قيادية؛ ففي جيش كبير يضم الآلاف كانت تنعدم أهميتهم وتنحصر مهامهم في الإدارة العامة والتحذير من المخاطر.

ثم كانت مسألة الاستراتيجية واختيار أرض المعركة. حسم عمر مجدداً المسألة، ومن الملحوظ أن قراره كان متوافقاً مع نصيحة المثنى بن حارثة المشار إليها سابقاً، والذي كان آنذاك قد استسلم لجراحه. وقد لحظ المخطط تجنب الدخول في معركة مركزة بعيداً داخل أراضي العدو.[15] فهذه المرة سيخوض المسلمون المعركة على أرض من اختيارهم، والتي وفق تقديراتهم يجب ألا تقع بعيداً عن حدود البلدين، أي أقرب ما يمكن إلى نقطة التقاء أرض العرب القاسية بأرض الفرس الخصبة، مما شكل عاملاً في مصلحة المسلمين، لأنه

في حال انكسارهم كان وراءهم خط انسحاب آمن عبر أراض مألوفة، حيث باستطاعتهم وبسهولة إعادة تجميع قواتهم من أجل شن هجمات جديدة. لذلك وقع اختيار عمر على القادسية، وهي بقعة خضراء على أطراف الطف محاطة من عدة جهات بالجداول والأقنية، وبأراض عالية مناسبة لإقامة أبراج مراقبة ومراكز عسكرية.كانت القادسية تقع بين الخندق (الذي أمر بإنشائه سابور ذو الأكتاف، وقد امتد من هيت إلى الطف ثم كاظمة فالخليج العربي) والعتيق، وهو جدول يمر فيما كان يعرف سابقاً قعر الفرات يوم كان يتدفق هذا الأخير نحو النجف حيث يلتقي الذراع الداخلي للخليج الفارسي، ثم يتابع مساره نحو منطقة الحيرة. أكثر من ذلك كان هناك قناتا مياه تمتدان في اتجاه الشمال الغربي والجنوب الشرقي نحو الحيرة والولجة على التوالي، وبذلك يساعدان في تأمين حماية الأجنحة.

علاوة على ذلك، كانت القادسية بوابة بلاد فارس. فكان هدف عمر الواضح هو استدراج أفضل ما لدى الفرس إلى هذا المنفذ الرئيسي وإيقاع الهزيمة بهم بضربة هائلة واحدة كي يدمر آمالهم بالنهوض مجدداً. كان يخطط لتوجيه ضربة مباشرة إلى قلب الإمبراطورية الفارسية، بالتالي فإن خطته اختلفت عن خطة أبي بكر الذي أراد القضم من الأطراف. بناء على ذلك، أعطى سعد تعليمات ألا يعطي العدو فرصة للراحة في حال هزموا، بل أن يضغط عليهم مستغلاً النصر، ثم الاندفاع مباشرة باتجاه المدائن.

بعد إكمال التخطيط واتخاذ التدابير اللازمة، سمح عمر لسعد بالتحرك من الشراف عند بداية الربيع سنة (15 هـ/

636 م) فتقدم حتى وصل العذيب، وهو حصن على بعد ستة أميال من القادسية، كانت أفواج الطلائع قد اقتحمته تحت قيادة زهرة بن الحوية، مسببين مفاجأة تامة للحرس الذين لم يبدوا أي مقاومة تذكر، بل هربوا على الفور تاركين وراءهم في المخازن كمية كبيرة من السلاح وأدوات أخرى مفيدة. تقدم بعدها سعد نحو القادسية حيث حصن نفسه بالقديس، وهو حصن قديم على مسافة ميل من العتيق، بينما عسكرت طلائع الجيش في مواجهة الجسر الذي يعلو الجدول، وبذلك أصبحوا مسيطرين على خط الاتصال الحيوي ومحبطين أي محاولة لعبور الجسر من الناحية الأخرى.

إن انقضاء أشهر الشتاء في التحضير على مسافة آمنة من الحدود، ثم الوصول إلى الجبهة في الربيع، قبل أربعة أشهر من الصيف، وهو أفضل وقت للقتال، شكل توقيتاً ممتازاً بالفعل، وأظهر وعياً تاماً في التصدي لكل المشاكل التي قد تعترض خطة غير اعتيادية اتخذها المسلمون لمواجهة الأوضاع الجديدة. يذكر أيضاً أن الجيش الإسلامي قد استعد للقاء العدو على أرض اختارها بنفسه، وهي التي كان يحتلها ويرابط فوقها آنذاك. هذه الخطة العسكرية التي وضعت موضع التنفيذ، تناقض كلياً طرق العرب التقليدية في الحروب، حيث كانت الجيوش تتقدم نحو العدو بطريقة المواجهة المباشرة لتصطدم بالجيش الآخر في أي مكان مناسب للقاء. وقد ترتب على ذلك عدد من المشاكل الجديدة، كالتموين، والاتصالات، والحفاظ على المعنويات، والدبلوماسية. وسنعود للتحدث عن هذه المشاكل لاحقاً، أما الآن فلنلق نظرة متأنية على التحضيرات الإدارية داخل المعسكر. نرى أن عمر المتميز

يبعد نظره أرسل مع الجند قاضياً، وأوكل إليه قسمة المغانم أيضاً، كما أرسل رائداً مسؤولاً عن المؤن والخفائر (وهو سلمان الفارسي الذي كان يعرف حتماً الأوضاع في المنطقة). وأرسل مترجماً وكاتباً (زياد بن أبي سفيان). بالإضافة إلى ذلك كان الجيش الإسلامي قد أتبع حسب التقاليد العربية بعائلات الجند وهم النساء والأولاد، الذين كلفوا بمهمات مهمة ومفيلة جداً، ذلك فضلاً عن كونهم مصدر وحي نبيل للرجال.[16] كانت الإجراءات المتخذة لهؤلاء النسوة والأولاد ملفتة للنظر. وقد تركوا في مخيم منعزل في العذيب على مسافة مناسبة خلف الجبهة وقريباً من المنطقة التي كان عليهم العمل فيها. كما كلفت فرقاً عسكريةً حراسة المعسكر مؤلفة من رجال ينتسبون إلى كل البيوتات المهمة التي تنتمي إليها العائلات.

لنترك الآن سعداً وجيشه متمركزين في القادسية، ولنلتفت ولو للحظة إلى الجانب الفارسي. كان الملك الصغير يزدجرد مضطرباً بسبب التقارير الواردة عن تقدم العرب وإتلافهم السواد، إلى درجة أنه قرر فوراً اتخاذ سياسة (انتفاضة الطير نهضة واحلة ضد العقاب). لقد اعتبر من وجهة نظره أن العرب اجترءوا للهجوم لأن الفرس لم يهتموا كفايةً لجمع كل قواهم من أجل المواجهة. لذلك أسند القيادة إلى رستم، أفضل قائد عسكري في فارس إبان تلك الفترة، وهو الذي يتمتع بخبرة قتالية كافية ضد العرب، وألزمه وضع كل الإمكانات المتاحة في مواجهة ضخمة تجري في أقرب وقت ممكن. وقد نصحه رستم بالصبر والأناة، وألح عليه بأنه من التهور المخاطرة بسمعة أكبر قائد في أول معركة، وهذه نظرة مشابهة للقرار

الذي اتخذه أخيراً عمر من جانب المسلمين. كان رستم مقتنعاً بأنه من الأجدى الدخول في عدد من المعارك المتتالية، تستنزف فيها موارد العدو وقواه تدريجياً بدل المخاطرة في مواجهة مصيرية واحدة قد تكون الهزيمة إحدى نتائجها. اعتمدت هذه الخطة دون شك على وعي لاستراتيجية العرب، لكن يزدجرد كان متصلباً ولا يتمتع ببعد النظر وأجبر رستم على تجميع قواته ضمن فترة زمنية قصيرة جداً في ساباط على الضفة الأخرى من دجلة وأمره بالاستعداد للتقدم. نفذ رستم الأوامر مكرهاً، وكان يائساً تماماً من النتيجة النهائية. من الغريب أيضاً أن مخاوفه أكدتها أحلام مقلقة ومظاهر شؤم كانت تتراءى له، كان كمعظم أهل بلاده يؤمن بها. كما كان معظم القادة الآخرين مثل جابان يائسين تماماً، وهم بدورهم كتبوا محذرين الأصدقاء. ونتيجة لذلك، فإن عدداً من النبلاء المهمين، مثل جوسنسماه، ظنوا أنه من المناسب تأمين أوضاعهم والتحالف سرياً مع الرابح المحتمل.

عندئذ، لم يهمل العرب الجانب الاستخباراتي، مستغلين كل من كان مقتنعاً بنصر العرب. ومن مظاهر ذلك المعاهدة مع بنوسلوبا في الحيرة، حيث تضمنت شروطاً صريحة تؤدي إلى نفس النتيجة. أما جوسنسماه فكان آخر من تعاملوا معه. كانت هذه المصادر كافية لإبقاء سعد على علم بتحركات العدو اليومية. وبعد شهر من وصوله إلى القادسية علم بأخبار الحشد في ساباط، فجرت اتصالات يومية بين الجبهة والمدينة، وكانت الأخبار تصل فور حدوثها إلى عمر الذي أمر بإرسال من يشرح موقف الإسلام ليزدجرد، محاولاً كسبه عن طريق الإقناع. كان عمر متنبهاً لأهمية التحركات الدبلوماسية،

وعرف أن حركات كهذه لا بد وأن ترتد على العدو بالسوء وأن تنعكس عليه.

لذلك تمت تهيئة بعثة مؤلفة من رجال اختيروا بشكل دقيق لما هم عليه من نجار، وما لهم من آراء واجتهاد وحكمة مثل النعمان بن مقرن، ولشخصيتهم المميزة مثل عمرو بن معد يكرب والمغيرة بن شعبة، وأرسلت هذه البعثة إلى عاصمة الفرس. مر هؤلاء بمخيم رستم في ساباط وهم في طريقهم نحو المدائن. هناك، في البلاط قدموا قضيتهم بشجاعة، وبساطة ودقة، موضحين أن غزوهم قائم على تعليمات الرسول لدعوة الشعوب المجاورة لولوج الطريق الصحيح، وليس بسبب مشاكل اقتصادية أو أي سبب آخر، كما ذكر يزدجرد. بالإضافة إلى ذلك، قدموا لملك الفرس ثلاث خيارات محددة وهي: الإسلام، أو الجزية، أو الحرب. كانوا قد خرجوا لتحرير الإنسان من عبودية الإنسان خلوصاً إلى عبادة الله. فإن قبل الناس بالإسلام، كانوا مستعدين لإعطائهم الحرية التامة في الحكم والانسحاب، مع ضمانة أن يتم التقيد بكتاب الله عن طيب خاطر وعلى أكمل وجه. لم يكن هناك هدف في استعباد، أو هيمنة، أو استغلال أو استعمار. وإن لم ير الناس سبيلاً للإسلام، يمكن الضمان لهم بالسلام، والحماية التامة ضد كل المخاطر الأجنبية والداخلية شرط أن يدفعوا الجزية، وهي أقل ما يمكن القبول به مقابل منحهم حرية الفكر والمعتقد. كان الهدف من ذلك إيقاف تدهور المجتمع البشري وترقية مهمة الإسلام الحضارية. أما الخيار الثالث فكان الحرب وقد وقع اختيار يزدجرد عليه. كان هذا الأخير مغتاظاً بسبب ذكر الجزية. ولولا أن الرسل لا تقتل لكان قتلهم. ورغم ذلك فقد

قام بكل ما يمكن القيام به من أجل إهانتهم، فهددهم بحملات كالتي قام بها سابور. وإمعاناً في غطرسته، أمر المسؤول عنهم أن يحمل وقراً من التراب، وأن يساق حتى يخرج من باب المدائن. لكنه فوجئ بأن العرب تلقوا التراب بفرح معتبرينه عربون وعد بتسليم البلاد بأكملها، مستمدين قوة من هذه النذر، بالطريقة نفسها التي اعتمدها الفرس لرؤية انعكاس أرواحهم اليائسة المنذرة بالشؤم.

بعد رحيل الوفد، ذهب رستم إلى المدائن ليطلع على نتائج زيارة الوفد، وكان مستاء عند معرفته بالنتيجة السلبية. اقتنع عندئذ أن لا مفر من الحرب، لذلك مضى قدماً بالتحضيرات. فأرسل طلائعه، وقد بلغ عددها الأربعين ألفا بقيادة جالنوس، ولحقها بنفسه على رأس قوة من ستين ألفاً، تبعها في المؤخرة عشرون ألفاً بقيادة البيرزان.[17] توجه هذا الجيش المكون من مئة وعشرين ألفاً من نبلاء الفرس يرفدهم عدد كبير من الخدم والاتباع أفراد الطبقات السفلى، وفقاً لمراكزهم الاجتماعية في ثلاث مجموعات تحت قيادة الجالنوس، ذو الحاجب (بهمن جاذويه) ورستم، وقد سلكوا الطريق الممتلة من ساباط نحو الحيرة ثم إلى النجف، فالجهة الغربية من الطف، حيث أقاموا معسكرهم لبعض الوقت. وبعدها توجهوا جنوباً إلى السيلحين وطيزناباز، والعتيق.

يذكر أن المسلمين اعتمدوا سياسة الانغاض والاقحام، وهي عمليات استفزاز للعدو لكي يخرج للقائهم على الأرض التي يختارونها. واجهت هذه السياسة مشكلتين أساسيتين: أولاً الحفاظ على المعنويات العالية، ومن ثم الإمدادات الكافية للمدة (ليس أقل من أربعة أشهر) التي كانوا سينتظرون

فيها وصول العدو. لا يبدو أنه كان هناك صعوبة في الحفاظ على معنويات عالية، فقد أخمد سعد أية محاولة تعبير عن الملل وفقدان الصبر. أما بالنسبة إلى مشكلة المؤن، والتي لم يواجه العرب مثلها من قبل، فيقال أن عمر نظم تدفق الإمدادات على أنواعها، بما فيها الحيوانات، من المدينة بشكل منتظم. إلا أن هذه الإمدادات من الوطن كانت تضاف إلى المغانم المكتسبة خلال الغارات التي كانت تقوم بها فرق صغيرة على سكان السواد الذين خانوا العرب وتألبوا عليهم بخرقهم معاهدات عدة، كما انتفضوا ضد المسلمين، فلذلك أعلنت الحرب عليهم. بدأت هذه الغارات في نفس اليوم الذي وصل فيه العرب إلى العذيب، وقد تربصوا قرب السيلحين بوفد زفاف أخت يزدجرد بن أزادبين مرزبان الحيرة. وتوسعت الغارات نحو أقصى السواد، من كسكر في الشرق إلى الأنبار في الغرب. تواصلت هذه الغارات حتى غدت أشبه بتسلية يومية للعرب الذين كما يبدو فضلوا اللحوم على كل شيء، وظلوا يذكرون أيام الحد حيث كانوا يحصلون على وجبات كبيرة من أنواع الحيوانات المختلفة. عدا أن العرب ملئوا مخازنهم بالغذاء إلى درجة أنهم لم يعودوا يخشون شيئاً من هذه الناحية. وعدا عن إبقاء المقاتلين في حالة قتالية ومعنوية جيدة، كان لهذه الغارات دور آخر. لا شك أنه لولا هذه الغارات، لما نجح العرب إلى هذا الحد في سياسة استدراج العدو؛ فنتيجة للرعب الذي انتشر في أراضي السواد بسبب عمليات السلب، أرسل السكان المحليون للملك الفارسي بتقارير مقلقة، جاء فيها أنه لم يعد هناك أمان للحياة أو الأملاك، وأنه في حال تأخر المدد لن يكون أمامهم من خيار سوى

الاستسلام للغزاة. هذه المتطلبات أبقت أعصاب الملك الصغير مشدودة ولم تسمح له بتخفيف الضغط عن رستم الذي كان يتقدم مكرهاً لدخول المعركة بسرعة. لولا ذلك، فإن رستم قد كان قرر اتباع سياسة المطاولة مع المنازلة، والمماطلة مع الاستعداد في موقع قريب حتى يتعب العدو ويضطر للانسحاب أو تأتي اللحظة التي يدخل فيها المعركة مع ضمانات بالتفوق لجانبه. هذه الطريقة كانت رداً على أسلوب المسلمين وكانت على الأقل أخرت الحسم في الحرب.

أخيراً وبعد أن انتظر سعد أربعة شهور، وصل رستم إلى العتيق وأقام معسكراً لجيشه عبر النهر في مواجهة المسلمين، كان يحرس الجسر من جهة العرب زهرة، أما من جهة الفرس فكان يحرسه ذو الحاجب. لا بد من التوضيح أن استراتيجية المسلمين كانت تعتمد على الإقحام وليس المماطلة أو الاستنزاف. من جهة أخرى كان لديهم أوامر صريحة من السلطة المركزية بمباشرة القتال لحظة وصول العدو إلى الساحة، وعدم السماح له بالاستراحة ولو لبرهة قصيرة. لذلك، أصر المسلمون على عدم إضاعة الوقت ومباشرة القتال. لكن رستم كان كعادته متردداً بخصوص الخوض في الاشتباك مباشرة، وأراد مناقشة موضوع السلام والاتفاق مع العرب مقدماً بعض التنازلات. لذا، فإنه ذهب في الصباح الذي أعقب وصوله إلى العتيق في مهمة استطلاع على طول مجرى النهر، ووقف على أول الجسر ونادى زهرة على الجانب الآخر، معبراً عن رغبته في تجنب الحرب، داعياً لإرسال مفاوض عربي لبحث إمكانية تسوية سلمية. ومرة أخرى استدعى سعد مجموعة من

الفرسان المعدودين وقرروا فيما بينهم إرسال مندوب واحد بدل إرسال وفد، كي لا يفسر إرسال الوفد حسب العادات الفارسية كتكريم لا يستحقه مجرد ضابط. لذلك، أرسلوا ربيعة بن عامر الذي كرر شرح قضية المسلمين كما قدمت سابقاً في البلاط الإمبراطوري، وإستجابة لطلب رستم وافق على هدنة لثلاثة أيام ليترك وقتاً للتشاور والتفاوض. في الواقع، لم يرد رستم سوى تضييع الوقت للحصول على هدنة لوقت غير محدود، ولكن لفشله في ذلك دعا مفاوضين في اليوم الثاني والثالث لمفاوضات مطولة. في اليوم الثالث، حين ذهب ممثل المسلمين المغيرة بن شعبة لملاقاته، فوجئ بلهجة رستم المتغطرسة، حيث ذكره بفقر العرب وخضوعهم لفارس في الماضي ومقارنتهم بالثعالب النحيفة، والجرذان والنحل المنجذب لمنظر الغنى، والذين سيزجون أنفسهم في وضعية يصعب فيها الفرار من الإبادة التامة في نهاية الأمر. وأظهر رستم نفسه متأثراً بالمبادئ الإسلامية بخصوص المساواة والأخوة، ولكن القبول بالإسلام اعتبر مستحيلاً إذا كان على حساب عناد أهل وطنه. وعندما رفض المغيرة أن يرهب بالتهديد وكرر له خيار الجزية، اغتاظ رستم وأعلن الحرب. وفي ذروة غضبه وافق على اقتراح المغيرة نقل الجيش الفارسي إلى الضفة الأخرى حيث المسلمون، وبدأ العبور في الليلة نفسها.[18]

بعد أن رفض سعد السماح لهم بالعبور فوق الجسر الذي استولى عليه المسلمون بالقوة، أمضى الفرس الليل في بناء سد للعبور إلى الجهة المقابلة للعتيق على مسافة قصيرة مقابل قديس. في الصباح التالي، المعروف بيوم السكر، عبر

الجيش الفارسي بكامله وبكامل عتاده وعدته بعد أن وعدهم رستم بتصفية المسلمين وإعادتهم حتى لو كان ذلك منافياً لإرادة الله. كانت أوامر المسلمين صريحة بالا يتحرشوا بالفرس في هذا الوقت. بعد انتهاء العبور بدأ الطرفان بترتيب قواتهما تحضيراً لليوم التالي. اتخذ الجيش الفارسي مواقع له على طول الضفة الغربية للعتيق، فكان ظهره للمجرى بينما وجهه لحصن القديس الذي كان يشكل قلب الخط العربي. تشابهت تشكيلات الجيشين كثيراً، وكانت في عدة خطوط مستوية وملتوية بعض الشيء نحو الأمام عند الأطراف، وقد وصفها ابن خلدون بقتال الزحف على عكس قتال الكر والفر الذي كانت تتبعه العرب في القتال. كان الخط مفصولاً عند نقطتين لكي يشكل ثلاثة أقسام: الوسط، والميمنة، والميسرة. كان موقع القائد في قلب الوسط، بينما جلس رستم على عرش عال ومظلل. أما المواقع المعروفة بالمقدمة والساقة فلم تكن مناسبة للتشكيلة الموجودة، فوضعت بين الوسط والميمنة والميسرة. تم استدعاء زهرة وجالنوس اللذين كانا يحرسان طرفي الجسر، وترك الجسر في حماية وحدات صغيرة. أما القوات الفارسية فقد تميزت بالإضافة إلى الخيالة، والمشاة، والرماة، بالذراع الرابع أي فرقة الفيلة التي كان المسلمون قد تذوقوا قتالها في حروب سابقة، وقد تألفت من ثلاثة وثلاثين فيلاً، ثماني عشرة منها في الوسط، ثمانية وسبعة عند الجناحين. حملت هذه الفيلة توابيت مثبتة على ظهورها تحصن في كل منها عشرون مقاتلاً. ضمت صفوف الفرس أيضاً أكثر من ثلاثين ألف مقاتل اقترنوا بالسلاسل رافضين أية فكرة للانسحاب، وهي من عادات الفرس القتالية.

على بعد ميل لجهة الغرب (قارن الديناواري 127: 6) امتد صف المسلمين مقابل الفرس على جانبي القديس وخلفهم الخندق القديم الشهير «الطبري 2294: 11- 13» لم يستطع سعد الركوب وقيادة جيشه بنفسه بسبب جراحه البالغة، فاستلقى في مكان مطل من القلعة، حيث يستطيع أن يراقب أحداث المعركة. تحته مباشرة كان نائبه خالد بن عرفطة الذي كان سعد يمرر له بشكل متواصل التعليمات على شكل رقاع فيها أمره ونهيه، يلقي بها من الأعلى.[19]

بعد توزيع الجنود، أعطيت ساعة الصفر إثر صلاة الظهر في اليوم التالي. في ذلك الوقت استدعى سعد إليه كل الفرسان المعروفين ببسالتهم ومكانتهم كالمغيرة، وطليحة، وعمرو بن معدي كرب، إضافة إلى الذين اشتهروا بشعرهم وببلاغتهم كالشماخ، والحطيئة، وأوس بن مغراء، وعبده بن الطبيب، وأمرهم بأن يخطبوا بالجند لرفع معنوياتهم من خلال أطلالهم عليهم وتوجيه الكلام إليهم، وفعل الفرس كذلك على طريقتهم.

أول أيام المعركة

في اليوم التالي رفع المؤذن الأذان لصلاة الظهر، ومن الطريف أن رستم ظن أنه صوت عمر يوجه الجنود. بعد انتهاء الصلاة، تليت سورة الجهاد بصوت عال ثم أعلنت ساعة الصفر بأسلوب متفق عليه سابقاً، وهو ثلاث تكبيرات من سعد. أول تكبيرتين كانتا لتستتم العدة، بينما كانت الثالثة للهجوم. تكتيكياً: مضت المعركة على ثلاث مراحل متتالية: المطاردة (وهي الطريقة التقليدية لابتداء الحرب) ثم التعقب، فالزحف. في المرحلة الأولى من المطاردة، أي في المبارزات

بين الفرسان التي كانت مسؤولية خاصة بقائد الطلائع سواد بن مالك التميمي، كان النصر للمسلمين: إذ هزم أحد أعظم قادة الفرس المتوجين وأسر، ثم جال فرسان العرب بين الصفوف معلنين أن الجنود الفرس ليسوا أفضل من الإبل. لكن بالنسبة إلى التكاتب أو القتال بوحدات صغيرة، أحدثت فرق الفيلة الفارسية بلبلة في صفوف فرق المسلمين وأربكتها. فنفرت الخيول بسبب منظر الحيوانات الضخمة وسحق المشاة بسبب قوة الهجوم. وازداد الأمر سوءاً حين قام الفرس بعد حصولهم على معلومات من أحد الفارين المسلمين، بتوجيه أكثر من نصف الخيالة إلى نقطة واحدة، وحلة قبيلة بجيلة. أمر سعد على الفور بني أسد بالهجوم لمساعدتهم ففعلوا ذلك وأحسنوا فعلاً.[20] إثر ذلك قام الفرس بهجوم عنيف ضد وحلة الأسديين الذين خسروا في هذه الجولة أكثر من خمسمئة مقاتل. وبينما كان الصدام على أشده، أمر سعد بالتكبيرة الرابعة، وهي تكبيرة الزحف والقتال الالتحامي. في النهاية أنقذ موقف المسلمين عاصم بن عمرو ومقاتلو تميم الذين وجدوا طريقة للتعامل مع الفيلة، فنضح الرماة ركبان الفيلة بالسهام، بينما قام الفرسان المسلمون بشق طريقهم إلى الفيلة فأخذوا بأذنابها وقطعوا أوضنها، وبذلك وقعت كل التوابيت وقتل كل من فيها، فدب الذعر في صفوف الفرس. استمرت المعركة حتى الليل حيث انسحب الطرفان كل إلى معسكره.

اليوم الثاني (يوم الأغوات)

في اليوم الثاني باشر المسلمون القتال في الصباح الباكر، مباشرة بعد إخلاء الساحة. كانت الإجراءات المتخذة لمعالجة

الجرحى ونقل القتلى متقدمة بشكل ملحوظ إذ أرسل عمر فرقة طبية وفرقة إسعاف متخصصة بنقل المصابين على الجمال إلى العذيب حيث اهتمت النسوة بهم، وحيث تم دفن القتلى على جانبي وادي مشرق «الطبري 2304».

ما كادت الجمال المحملة بالرثيث والأموات ترحل، وما كادت المعركة تبدأ، حتى وصلت تعزيزات من سورية. كانت هذه التعزيزات مكونة في أغلبها من أهل العراق[21] الذين قد كانوا حولوا إلى الجبهة السورية بقيادة خالد، لكن عمر أصدر أوامره إليهم بالعودة فوراً إلى القادسية. كان الواصلون في يوم أغواث، بعد شهر من اليرموك يشكلون طليعة التعزيزات بقيادة القعقاع بن عمرو الذي أسرع وسبق القوة الأساسية التي يقودها هاشم بن عتبة أحد أقارب سعد. كان القعقاع مصدر حماس قتالي أكثر من سائر القوة، وهو ما يبرهن على صحة مقولة أبي بكر «لا يهزم جيش فيهم مثل هذا» وقد أظهر براعته وحنكته الحربية عندما أمر جنوده بتقسيم أنفسهم إلى أعشار، والاندفاع نحو ساحة المعركة على دفعات متلاحقة. وحين وصل إلى المقدمة أضفى زخماً ودفعاً للمعركة لم يكن معقولاً لولا أنه أعطى مثالاً يحتذى به. بدأت المعركة مجدداً بالمطاردات حيث قتل ثلاثة من قادة الفرس وهم: ذو الحاجب وجاذويه البيرزان اللذين قضيا على يد القعقاع، والبندوان الذي قضى على يد أحد زملائه. من الأشياء الغريبة التي حدثت في معركة هذا اليوم هو أنه بينما عجز الفرس عن استخدام الأفيال لأن التوابيت كانت بحاجة لإصلاحات كثيرة، ابتكر المسلمون طريقة غريبة للهجوم، حيث غطوا الجمال بأردية، ووضعوا عشر مقاتلين على كل جمل ثم

أرسلوها مرافقة بالخيالة. ترك هذا المنظر الغريب تأثيراً على خيول الفرس مماثلاً لذلك الذي سببته الفيلة على خيول العرب في اليوم السابق. عند منتصف النهار تحولت المطاردات إلى هجوم شامل دام حتى وقت متأخر من الليل. كان للمسلمين الغلبة على العدو الذي سحقت فرسانه في الوسط، واضطر للعودة إلى الهجوم خوفاً من أن يقع رستم أسيراً. ارتفعت معنويات المسلمين وأخذوا يتفاخرون بأصالتهم خصوصاً مع انتصارهم على ثلاث قادة من العدو في الصباح، ومع التدفق المتواتر لقوى المساندة والدعم المقبلة من الشام، التي ظلوا يستقبلون أرتالها بالتكبير حتى آخر الليل. أزال يوم أغواث تماماً كل ما تركه يوم أرماث في أذهان المسلمين ونفوسهم من أثر.

اليوم الثالث (يوم عِماس)

في اليوم الثالث فرشت أرض المعركة بالجثث، فبدت وكأنها امتداد لأحجار حمراء. ومن جديد تكبد المسلمون خسائر بلغت ألفي إصابة سحبتها بحذر من أرض المعركة فرقة الإسعاف التي كان على رأسها حاجب بن زيد. قامت النساء بمعالجة الجرحى، بينما دفن الموتى في القبور التي حفرها النساء والأولاد في اليومين السابقين. لم يكترث الفرس لهذا الأمر، رغم أن خسائرهم بلغت خمسة أضعاف خسائر المسلمين، إلا أنها كانت متناثرة بين خطوط القتال.

ما إن سحبت الضحايا حتى استأنف القتال في الصباح الباكر، وكان الباعث على ذلك نتائج اليوم السابق. انسحب القعقاع بقواته سراً تحت جنح الظلام إلى نقطة محددة على

الطريق القادم من سورية حيث ظهر في اليوم الثاني للمعركة. وقد أمرت هذه القوة بالعودة إلى الجبهة عند الفجر على شكل مجموعات تتألف كل منها من مائة مقاتل، وكان من المتوقع أن ينضم إليهم في الحال قوة التعزيزات الأساسية بقيادة هاشم بن عتبة. وقد نصح القعقاع عاصم بن عمرو أن يفعل مثله، وأن يسحب قواته باتجاه خفان إلى مسافة قريبة من أطراف جيش المسلمين، وإعطائهم الأوامر بالتوجه إلى ساحة المعركة على دفعات متتالية. ومع بداية القتال ظن الطرفان المتقاتلان أن هذه القوات إنما هي إمدادات أو تعزيزات جديدة آتية من الجانبين. وفي الحقيقة انضم إليهم بعد ذلك بقليل هاشم بن عتبة الذي سبق على الأرجح الجيش حتى يصل في الوقت المناسب، وكان على رأس تشكيلة من سبعمئة مقاتل من النخبة أمثال قيس بن هُبيرة.[22] كانت خطة القعقاع هذه مفيدة جداً من الناحية المعنوية لأن الفرس أيضاً كانوا يتلقون التعزيزات بشكل متواتر من يزدجرد، الذي كان على اطلاع دائم على أحداث المعركة من خلال نظام الخيل الموزعة على طول الطريق في مواقع محددة والتي كانت تنقل الرسائل من القادسية إلى المدائن.

وهكذا بدأت المعركة بشكل متوازن. في هذا الوقت كان الفرس قد أصلحوا التوابيت الخشبية وبدءوا مجدداً باستعمال الفيلة. الجديد في ذلك هو أن الفيلة كانت محاطة بالمشاة، الذين أحاط بهم أيضاً فرسان لحمايتهم، كل هذا الحشد كان لمنع المقاتلين المسلمين من قطع أحزمة الفيلة. حال هذا الإجراء من غير شك دون أن يكرر المسلمون خطة اليوم الأول، ولكن في نفس الوقت قلل التدبير الجديد كثيراً من

خطورة الفيلة، لأنها مع مرافقة المشاة والخيالة تصرفت بشكل هادئ. بالرغم من ذلك، فإن أي محاولة لإرباك صفوف المسلمين تم إجهاضها بشكل ناجح من خلال نصائح الفرس الذين أسلموا أو انحازوا إلى سعد. أشار هؤلاء إلى أن الأعضاء القاتلة للفيل هي العينان والخرطوم، ولم يتأخر الفرسان العرب البارزون أمثال القعقاع وعاصم، وهمال والربيل للعمل بهذه النصيحة. فذهبوا في مجموعات صغيرة وطوقوا الفيلة. وبما أن العدو لم يكن باستطاعته معرفة حيلة العرب التالية، استدار وانشغل في حماية الأحزمة، عندئذ جعل العرب خيلهم تقف على أرجلها الخلفية بينما ضربوا الأعين وخرطومي الفيلين الملكيين بواسطة الرماح. أقعى الفيلان الجريحان كالعادة إلى الخلف، وبما أنهما القائدان فقد لحق بهما الباقون الذين خرقوا خطوط الفرس وعبروا إلى الجانب الآخر من العتيق.

وبعد ذلك قضى المسلمون على فرقة الفيلة وأوقعوها في الحفرة التي حفرها الفرس للعرب. لكن مصيراً مماثلاً كان بانتظار أندادها في مخيم المسلمين. فبينما كان هؤلاء منهمكين بالتعامل مع الفيلة تجمعت جمالهم بجانب بعضها وأصبحت عرضة لضربات العدو، فعرقبت رغم تغطيتها بالتجافيف والدروع الأخرى. وعندما حان وقت الهجوم الشامل في آخر النهار وجد الطرفان نفسيهما مجبرين على قتال تصادمي التحامي. حاول المسلمون في بادئ الأمر القتال الفردي، ولكنهم وجدوا أن العدو يعتمد على تقنية جديدة ومختلفة. رفض الفرس الخروج من الصفوف للقتال الفردي وضمن مجموعات. فقد اصطفوا في ثلاثة عشر صفاً متراصاً،

مائلاً قليلاً عند الأطراف لكي يكون له (أذنان) أكان في الوسط أو على الجناحين، وهددوا بدفع هذه الخطوط الجامدة التي لا تخترق بعنف، الواحد تلو الآخر في هجوم شامل. أدرك المسلمون أن العدو لن يهزم إلا إذا استعملوا أسلوبه. لكن رغم رغبتهم القيام بهجوم شامل، إلا أن سعد لم يعط الإشارة لذلك إلا بعد وقت طويل حتى اقتنع بضرورة هذه الخطوة حتى بات الوضع ضاغطاً، فرأى القعقاع أنه من المناسب أن يتصرف بسرعة. تلطف سعد مع القعقاع وسلم برأيه، فطلب ثلاث تكبيرات، يهاجم بعدها الجيش هجوماً كاسحاً. لكن الصبر نفد بين الجنود فهجموا عند التكبيرة الأولى أو ربما الثانية، تاركين وراءهم القادة ينتظرون الثالثة. بزخم واندفاع مماثلين، عبر طليحة، الذي كان مكلفاً حماية مخاضة بالقرب من المجرى، إلى الجهة الأخرى، وكبر من قلب معسكر العدو مما سبب مفاجأة سعيدة للمسلمين، واضطراباً واستغراباً لدى الفرس. في النهاية، اندفع المسلمون في هجوم شامل تبنوا فيه تكتيك الفرس، فنظموا جنودهم في ثلاث خطوط أولها من الفرسان، وثانيها من المشاة المزودين بالرماح والسيوف وثالثها من الرماة. ثم تقدموا في تشكيلات الازدلاف، كل فرقة في موقعها الخاص بعد أن ترجل معظم القادة، وهذا التقليد متبع في الحالات الصعبة؛ وعملاً بنصيحة قيس بن هبيرة تم تسليم الخيول لرجال من المشاة للاعتناء بها وحمايتها من العدو. كان القتال عنيفاً ومتلاحماً وبطيئاً وقد عرف بليلة الهرير، لأن المقاتلين تشابكوا ليستجمعوا قواهم المنهكة، ودام الاشتباك حتى ساعة متأخرة من الليل دون حسم لأي طرف.

أما القسم المتبقي من الليلة فكان اختباراً قاسية وحاسماً للصبر والمثابرة. قاتل الجنود قتالاً حامياً طوال الوقت دون السماح لأنفسهم بساعة نوم. أنهك الطرفان، لكن قادة المسلمين عرفوا أن هذه فرصتهم لتسديد الضربة القاضية. وفي الصباح الباكر قام القعقاع المهيب وفرسان مسلمون آخرون بتحذير المقاتلين من أي تقاعس قائلين لهم أن النصر سيكون قريباً للفريق الذي يستطيع إقامة دفاع قوي في لحظة الضعف تلك. وتبعاً لذلك قام المقاتلون المسلمون بمجهود أخير وشجاع، وقبل الظهيرة تم دحر الهرمزان والبيرزان وهما قادة الميسرة والميمنة، واقتحام الجيش الفارسي في الوسط. حتى الطبيعة تدخلت لمساعدتهم، فقد هبت رياح غربية عاتية لتسفوا الرمال في وجوه الفرس. وصل القعقاع وفرقته بعد ذلك إلى سرادق رستم، وكانت خيمته المظللة قد مزقتها الرياح وقذفتها إلى العتيق. حاول رستم الاختباء تحت أحد بغال النقل في مؤخرة خطه، عندما طارده على الأرجح هلال بن علفة إلى العتيق وجره إلى الضفة وقتله. ما إن وقف هلال على سرير رستم وصرخ أن رستم قد مات، حتى عمت الجيش الفارسي فوضى عارمة. ثم تبعاً لأوامر جالنوس الذي تولى القيادة بعد ذلك، عبر الفرس إلى الضفة الشرقية للعتيق وانسحبوا في حالة فوضى مدمرين السد والطريق المسلوك خلفهم، ووقع ثلاثون ألف مقاتل مقترنون بالسلاسل، في مجرى النهر لكنهم قضوا برماح المسلمين، وتم الاستيلاء على راية الفرس المقدسة المسماة درفش كابيان. بقي حوالي (32) فرقة محصنة على الساحة وكانوا مصرين على القتال حتى آخر رجل، كان بينهم: الهرمزان، وقارن، وزاذ بن بهيش، لكنهم تراجعوا أخيراً

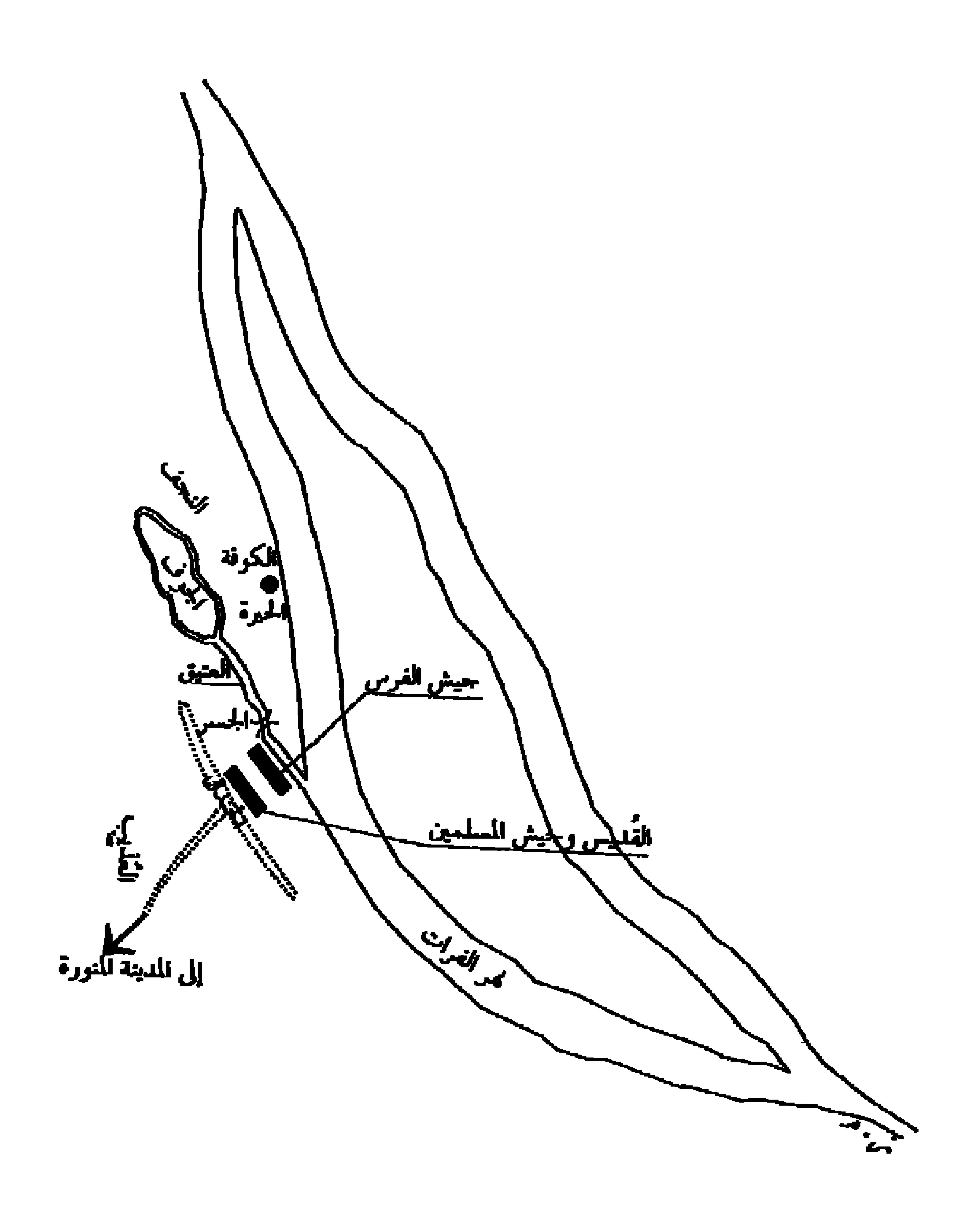
عن قرارهم، بينما تولى أمر الباقين الفرسان المسلمون، من أمثال سلمان وعبد الرحمن ذو النور.

بعد انتهاء المعركة، أمر سعد زهرة بمطاردة فلول الفرس، وأمر القعقاع وشرحبيل بمسح المنطقة سفلاً وعلواً وتطهيرها على طول مجرى العتيق. في ذلك الوقت، استدعي الأولاد والنساء من العذيب لكي يجمعوا جثث المقاتلين المطروحة أرضاً والتي كانت تغطي المساحة كلها بين القديس والعتيق، ثم القيام بالسقيا والاعتناء بالمسلمين المصابين والإجهاز على مقاتلي العدو الذين هم على شفير الموت. لحق زهرة بجالنوس على طريق النجف وقتله. بعد ذلك هرب الفرس باتجاه المدائن وعاد زهرة إلى القادسية، قبل صباح اليوم التالي، وكان القعقاع وشرحبيل قد عادا من مهمتهما. أحصيت الخسائر في اليوم الثالث والليلة التي تلته فبلغت حوالي ستة آلاف مقاتل عربي وعشرة آلاف مقاتل فارسي، بالإضافة إلى ثلاثين ألف فارسي أغرقوا في العتيق. لذا يمكننا القول بأن المعركة كلفت ثلث المسلمين، وأكثر بقليل من النسبة المئوية نفسها في الجيش الفارسي.

في الختام يبقى أن نشير بشكل ملخص إلى الرؤى المختلفة حول طبيعة ودوافع التوسع العربي الإسلامي من خلال ما توضحه هذه العركة. فهل كانت هذه المعركة نتيجة طبيعية لجفاف الصحراء؟ ويأتي الجواب على هذا السؤال المهم من خلال التبادلات الديبلوماسية التي سبقت بدء القتال في القادسية، والذي يشكل عرضاً لأهداف الذين شاركوا فعلياً في الأحداث ودوافعهم. إن الإصرار القطعي للمفاوضين العرب في بداية هذه المعركة (كما في اليرموك) يوضح أنهم كانوا بعيدين كل البعد عن كونهم مدفوعين لمجرد رغبة في

السجال. أما البروفسور فيليب حتي[23] فيذكر كلمات رستم التي تدعم النظرية الغربية القائلة بوجود دوافع اقتصادية بحتة كامنة وراء هذا التوسع، وهي النظرية التي يحمل لواءها كتياني وبيكر ويعارضها موزل ولامنس. لكن حتي يتجاهل تماماً رد الموفد العربي الذي يشكل رفضاً قاطعاً لما يريد إثباته. بالطبع، لم تكن المكاسب الاقتصادية غائبة عن أذهان العرب، لكن النقطة الأساسية هي أنهم كانوا واعين تماماً أن هدفهم الأساسي هو القتال في سبيل الله.[24] إن الأوضاع المعيشية لا بد أن تؤدي إلى بروز بعض الخصائص مثل القساوة والروح القتالية، لكن ما يجدر ذكره أن العرب كانوا في الفترة التي نقوم بدراستها قد وصلوا إلى مرحلة عالية من التطور الفكري حتى أنه كان باستطاعتهم تشرب قيم أخلاقية وروحية جديدة، بشكل تصبح هذه القيم هي القوة المحركة الوحيدة لأفعالهم.

كذلك، فإنه لا يوجد دليل على أن الحرب كانت دفاعية. من الملاحظ أنه لا يوجد ذكر عند العرب لأي مجازر ارتكبها الفرس رغم كثرتها. من ناحية أخرى، هناك إثبات بأن عمر ما كان ليسمح للمسلمين بالعودة إلى مساوئ الفرس قبل الإسلام[25] إذ أن الزخم الديني كان آنذاك رائداً ضد أفكار الانتقام. أما المعتقدات الوثنية لأي قوة منظمة فكانت تشكل بحد ذاتها تهديداً دون أن يرافقها بالضرورة نوايا عدائية صريحة. لذلك، فإن الحروب الإسلامية الأولى كانت حروباً مثالية لم يسببها بالضرورة استفزاز مباشر وإن كان الأمر كذلك في بعض الحالات؛ وهذا التغيير المهم في وجهة نظر العرب يظهر بشكل واضح خصوصاً من خلال مرسليهم ليزدجرد ورستم وهامان.[26]



معركة القادسية

هوامش: «معركة القادسية»

*Dr. S. M. Yusuf, The Battle of Al-Qadisiyya. Islamic Culture - The Haydarabad Quarterly Review. Vol. XIX. Haydarabad, Deccan 1945.

1) بقيت جرائم سابور الثاني عالقة في الأذهان فترة طويلة كمحاولة للقضاء عليهم. قال الشاعر:

على رغم سابور بن سابور أصبحت   قباب إياد حولها الخيل والنعم

كما أن يزدجرد الذي كان حانقاً على المتحدثين باسم المسلمين في القادسية لم يستطع أن يستذكر أداء فارسياً أكثر فظاعة.

2) هناك معرفة بوجود قوات فارسية خاصة عرفت باسم الدوسر والوضاعي «ابن سيلة: المخصص 6، ص 204» الذين خدموا قواتاً إضافية لملوك الحيرة. وكان الحيريون فعّالين في كبح تجاوزات القبائل البدوية واستخدام قدراتها الحربية التي كانت تهوم صحراء النفوذ.

3) هذه كلمات رستم، وفق الطبري «الطبري 1: 2276، 2281 قارن 2352».

4) إن ما دوّن عن جدال الشعوبية يعكس تحاملات قديمة. وهنا مقطع متعلق بالموضوع يستحق أن يذكر وهو من كتاب العرب لابن قتيبة «رسائل البلغاء. تحقيق محمد كرد علي، مصر (1331 هـ). ص 289» يستحق الاقتباس:

«وأما الشجاعة فإن العرب في الجاهلية أعز الأمم أنفساً وأعزها حريماً وأحماها أنوفاً وأخشنها جانباً، وكانت تغير في جنبات الفرس وتطرقها حتى تحتاج الملوك إلى مداراتها وأخذ الرهن منها. والعجم تفخر بأساورة فارس ومرازبتها. وقد كان لعمري لهم البأس والنجدة، غير أن بين العرب وبينها في ذلك فرقاً منه أن العجم كانت أكثر أموالاً وأجود سلاحاً وأحصن بيتاً وأشد اجتماعاً، وكانت تحارب برياسة ملك وسياسة سلطان. وهذه أمور تقوي المنة وتشد الأركان وتؤيد القلوب وتثبت الأقدام، والعرب يومئذ منقطعة ليس لها نظام ومتفرقة

ليس لها التئام، وأكثرها يحارب راجلاً. . .».

5) «العقد الفريد (1302)» ابن قتيبة: المعارف (Goettingen) ص 295.

6) إن حاجب بن زرارة نفسه الذي أغرى بذلك عبّر عن حنقه في الأبيات التالية (رسائل البُلَغاء، 290–291)

لحا اللـه دينك من أغلف	يحـل الخوات لنا والبنـات
أجشت(؟) على أسوتي سوءة	وطوقت جيـدي بالمخزيات
وأبقـيت فـي عنقـي سبـة	مشاتم يحيين بعد الممـات

لاحظ استعمال كلمة (أغلف) ذات الدلالة القوية على الكبرياء القومي العربي. ويقول شاعر آخر هو أوس بن حجر: تهذيب الألفاظ. ص. 301؛ المحبّر. ص 325.

والفارسية فيهم غير منكرة فكلهـم لا بيـه ضيزن سلف

كلمة (ضيزن) هي أيضاً من أصل فارسي (أدّي شير: الألفاظ الفارسية المعربة. بيروت 1908، ص 110).

أنا مدين بهذه المراجع إلى أستاذي ومرشدي الدائم البروفيسور (A.A.Memon).

7) خرداذبة (128).

8) الطبري (1: 2041)؛ قارن (2047، 5–6؛ 2190). وسيتضح لاحقاً كيف استمر الحيريون في العمل جواسيساً للمسلمين. كما حارب عدد من الأجانب إلى جانب العرب في القادسية. (الطبري: 1: 2261؛ 1340).

9) ربما لم تكن مدينة البصرة قد أسست بعد، لكن وجود موقع عسكري بالقرب منها في زمن مبكر من الغزو الإسلامي فهو ليس محط شك. انظر: البلاذري (1: 256).

10) وفق البلاذري (1: 256) تراوح العدد بين تسعة آلاف وعشرة آلاف، والواضح أنه استخفافه خاصة في ضوء موافقته على أن عدد الفرس كان عشرون ألفاً.

11) الطبري (1: 2221).

12) يؤخذ التعبير (عُشر الناس) على أنه يعني (تقسيم الناس إلى عشرات).

لكنني أتمسك برأي أن المقصود وجبت فهمه على نحو (تقسيم الناس إلى عشرة 'وحدات'. ولا شك أن فقه اللغة يسمح بكلا التأويلين ذلك أن رديف كلمة (أعشار) هو (عشرة عشرة) أي (في عشرات) وكذلك (عشرة) أي عُشر أي شيء. وبهذا المعنى الأخير انظر قول امرؤ القيس:

وما ذرفت عيناك إلا لتضر بي بهيمك في أعشار قلب مقتل

ولكن السياق الذي ورد في رسالة عمر (الطبري I: 2223–4) لا يسمح إلا باستنتاجي لأن تعيين العرفاء تم ذكره بشكل منفصل. كما يتبين أن القيادة آلت من (أمراء الأعشار) إلى (أصحاب الرايات) بما يعني بالضرورة أن الأول كان أكبر عدداً من الأخير والذي سيكون أمراً مستحيلاً فيما لو كان كل واحد من الأعشار يضم عشرة جنود فقط. كما وجب ملاحظة أن تسعة من عشرة من هذه الوحدات قد ذكرت ضمن السياق نفسه بينما ذكرت المُراميَّة ضمن حديث آخر (الطبري 2226، 1، 1).

13) من الأمور الجديرة بالملاحظة أن قادة الأجنحة قد تمت الإشارة إليهم بالتعبير (استُعمل على) بينما وظف القول (جُعِل على) للإشارة إلى القادة الآخرين (الطبري I: 224– 5).

14) الطبري (I: 2225، 11– 13).

15) الطبري (I: 2226، 16– 17).

16) وفي الطرف المقابل، استمد الفرس فخرهم من الثروات التي أحضروها معهم إلى أرض المعركة. الواقدي: فتوح العراق (Newalkishore Press, P. 59).

17) من الجلي أن ابن اسحق لم يأخذ بعين الاعتبار مقدمة الجيش الفارسي وساقه عندما ذكر أن عدده ستون ألفاً فقط. انظر (الطبري I: 2361، 8).

18) من الواضح أن الديناوري (ص. 127، I،7) أخطأ عندما كتب أن المفاوضات بين سعد ورستم دامت شهراً كاملاً.

19) في الوقع بقيت قيادة الحملة في يد سعد بينما كان خالداً وسيط لنقل التعليمات إلى المراتب الدنيا. وكان تعيين خالد نائباً للقائد قد أثار بعض الاحتجاجات وكان على سعد أن يبذل جهداً كبيراً لإقناع قواته به.

20) من الجلي أن العرب عرفوا الممارسة العسكرية القائلة بوجوب

الاحتفاظ بقوات احتياط (الردء - الطبري 2301) لإقحامها في المعركة في اللحظات الحرجة.

21) تراوح الرقم المعطى من (850) جندياً (الأزدي 67: 1؛ 70: 11) و(10000) (ابن عساكر 170). وبالمثل، فإن عدد الذين تم ترحيلهم يعطى في مراجع متأخرة (ص 155) هو أيضاً عشرة آلاف بينما تم توضيح أنه تم تعويض الخسائر باحتياط، وفي الطبري (2305.5)؛ قارن: اليعقوبي الذي يورد رقم خمسة آلاف. في كافة الأحوال، فإن التعزيزات المرسلة إلى القادسية ضمت عدداً من المحاربين الذين لم يكونوا من فرقة خالد. وكان قيس بن هُبيرة مثالاً على ذلك.

22) استمرت التعزيزات الآتية من سورية في التدفق على دفعات حتى اليوم الثالث التالي على الانتصار. أنظر البلاذري 256؛ الطبري 1: 2367.

23) (A history of the Arabs, P. 144). كما يمكن البرهنة على أن اقتباسات أخرى للكاتب قد تم بالمثل نزعها من السياق الذي وردت فيه.

24) راجع الكلمات التي قالها شخص بأهمية خالد بن الوليد قبل أن تنشب معركة القادسية بزمن طويل. (الطبري، الجزء الأول، ص 2031: 6-3) وهي التالية: «وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في سبيل الله والدعاء إلى الله عزّ وجلّ ولم يكن إلا المعاش لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ونولي الجوع والإقلال من تولاه ممن أثاقل عما أنتم عليه».

25) لاحظ كيف أن صرخة «تغريق بتحريق» أربكت عمر لأنه من المفترض أنها تشير إلى فظائع ارتكبها الفرس فيما مضى.

26) أنا مدين للدكتور محمد حميد الله من الجامعة العثمانية لأنه لفت انتباهي إلى هذا الموضوع وأطلعني من خلال الترجمة على براهين كيتاني حول مسألة التاريخات.

معركة اليرموك: إعادة بناء*

على بعد حوالي ثمانية أميال شرق بحيرة طبرية، يلتقي الرافدان الرُّقَّاد واليرموك وهما ينحدران باتجاه نهر الأردن. وفي الهضبة التي يحدها هذان الرافدان، هزمت القوات العربية الجيش البيزنطي في آب عام (636 م / رجب عام 15 هـ).[1] وقد أعطى هذا النصر العرب سيطرة أبدية على المنطقة السورية-الفلسطينية، كما أدى إلى انتصارات أخرى وسعت سيطرة العرب لتبلغ جبال البيرينه وآسية الوسطى. لهذا، تستحق هذه المجابهة التي جرت في اليرموك، أن تدرج بين أهم المعارك التي شهدها تاريخ البشرية. لكن، على الرغم من أهمية هذه المعركة فإنه يتعين علينا تحليلها من المنظور العسكري. لقد تجاهل المؤرخون العسكريون هذا الجانب، بينما تضايق المستشرقون كثيراً من طبيعة المصادر المتناقضة والمجتزأة. غالباً ما يميل هؤلاء المستشرقون إلى النظر إلى الانتصار العربي على أنه نتيجة حماس ديني. لكن، يستحيل أن يكون الحماس الديني وحده وراء صد قوات الفرسان البيزنطية الثقيلة، ولا بد أن العرب كانوا متفوقين عسكرياً آنذاك. يبقى أن نرى ما تفيدنا به المصادر حول هذا الموضوع.

عديدة هي المؤلفات التاريخية الإسلامية والمسيحية التي تشير إلى بعض أحداث معركة اليرموك، لكننا لا نجد في أي

منها رواية كاملة عن المعركة.[2] قد يفترض المرء أن حدثاً بهذه الأهمية قد دونته، على الأقل، الدولة البيزنطية. لا شك في ذلك، لكن غالبية التراث التاريخي الذي يعود إلى هذه الفترة قد دمرت معظمه السلالات المتعاقبة. فعندما انتصرت الأرثوذكسية على مذهب هرقل الأحادي ولما أطاح العباسيون بالأسرة الأموية، تم تطهير المكتبات والسجلات. لقد أرادت الأنظمة الجديدة أن تمحو ذكر أسلافها المكروهين، فانتقدت الوثائق بشدة، أو أتلفتها. ووصل إلينا ما تبقى من الروايات المتعلقة بالمعركة من خلال المتوارث الشفهي أو من خلال الوثائق التي نجت من الإبادة. شكلت مثل هذه المواد أساس المصادر المتوافرة لدينا، إذ جمعت التواريخ بعد المعركة بقرن أو أكثر. إضافة إلى هذه الوثائق القديمة، لدينا تقرير معاصر واحد سنبين مدى أهميته لاحقاً.

كما ورد أعلاه، إن التقارير المنقولة متضاربة فيما بينها. ويمكننا تفهم ذلك على اعتبار أن تقارير قد فقدت، وأن ذاكرة الإنسان معرضة للخطأ، وأن المتوارث الشفهي يتضمن الكثير من المؤثرات: يعتبر معظم كتاب المصادر المتبقية أن معركة اليرموك هي حدث ينتمي إلى الماضي البعيد. لقد عمل هؤلاء جاهدين على جمع كل ما تبقى من مقتطفات المعلومات المتناثرة، إلا أنه كان من الصعب جداً تفادي الالتباس في التواريخ والأحداث والأماكن.

على الرغم من كل المتناقضات، تتفق عامة المصادر على النقاط التالية: كانت معركة اليرموك خاتمة حملة بدأت قبل ذلك بعدة شهور بهجوم مضاد للبيزنطيين انطلاقاً من شمالي سورية. ثم إن الجيش البيزنطي ضم قوات إقليمية قادها بنّس

(باهان، ماهان) بالإضافة إلى قوات عسكرية كانت تخوض معارك خارج الأراضي البيزنطية بقيادة أمين الخزينة الإمبراطورية ثيودورس (تضاريق) الذي كان القائد العام للجيش. وفي حين كان الجيش البيزنطي يتقدم ليستولي مجدداً على حمص ودمشق، عمد العرب إلى الانسحاب، ويرجح أنهم حشدوا بالقرب من نهر اليرموك كل القوات المتوافرة لديهم حيث تواجه الجيشان لعدة أسابيع. وأخيراً، بدأ القتال، فدفع البيزنطيون العرب إلى الوراء حتى دخلوا معسكرهم. ثم تغير مجرى المعركة، إذ أجبر سلاح الفرسان البيزنطي على التراجع، وانتهى القتال بمجابهة مع بقية الجيش وبدفعه إلى حافة الوادي. تعطينا هذه الوقائع القليلة خطوطاً عريضة لم تقم الأبحاث المعاصرة بالكثير من الجهد لتحليلها.

لم تسجل سوى محاولة جدية واحدة لإعادة رسم بعض التكتيكات. يظن بكر أن العرب:

> «التفوا حول البيزنطيين من الناحية الشرقية قاطعين بالتالي أي اتصال لهم بدمشق، وباحتلال الجسر الممتد فوق وادي الرُّقّاد أحبط العرب أي فرصة للبيزنطيين بالتراجع نحو الغرب. وأخيراً، ضيقوا عليهم الخناق في الزاوية الواقعة بين نهر اليرموك ووادي الرُّقّاد فمن لم يمت من البيزنطيين في هذا المكان، دفع بقوة من حافتي الوادي الشديدة الانحدار نحو القعر السحيق، ومن فر منهم بعد ذلك عبر مجاري الأنهار نحو ياقوثا أباده العرب المتواجدون في الجهة الثانية. فباحتلال العرب الجسر أصبحوا قادرين [illegible] الرُّقّاد بسهولة».[3]

يمكن تقبل هذا (السيناريو) بالنظر إلى الهزيمة النكراء للمشاة البيزنطيين. لكنه، من جهة أخرى، لا يقدم هذا (السيناريو) أية شروح للأحداث التي سبقت المعركة، كما أنه لا يقيم أية علاقة مع استراتيجية وتوجه الجيوش المتصارعة.

طوال الحملة، اعتمد العرب خططاً دفاعية. فبعد خروجهم من دمشق، عسكروا في الجابية (جنوب غربي دمشق) لكن هذا الموقع أيضاً لم تعد حمايته ممكنة، فتابعوا الانسحاب باتجاه الجنوب. ظل البيزنطيون يلاحقون العرب وساروا بموازاتهم في الجهة المقابلة من وادي الرُّقَّاد (ابن عساكر، 531/I- 533) وأخيراً عسكر العرب عند الضفة الشمالية لنهر اليرموك. إلا أن المصادر لم تحدد المكان، لكنها ذكرت أن أذرعات كانت وراء الجيش العربي. نستنتج بالتالي أنهم كانوا مواجهين للشمال الغربي. كما ذكرت المصادر أن قادة الجيش العربي انهمكوا على وجه الخصوص بترتيب الخطط الدفاعية (ابن عساكر، 532 و537- 538). ولا يوجد في كل هذه المنطقة سوى موقع واحد يتناسب مع هذه الخطط الدفاعية، وهو الأرض المرتفعة، بالقرب من ملتقى وادي الحرير واليرموك. لا شك أن العرب تمركزوا أمام المنحدر (نحو الغرب) لأن المصادر ذكرت أن الأرض المرتفعة كانت وراء مخيمهم (ابن عساكر، 537). أما البيزنطيون، فقد ضربوا خيامهم في موازاة الرُّقَّاد على بعد خمسة أميال من ملتقى النهر. وكالعادة، حفروا خنادق حول معسكرهم على طريقة الرومان الأوائل. كما يبدو أنهم استخدموا مجرى النهر الأسفل، الشديد الانحدار، عائقاً أمام العدو لحماية جناحهم الأيمن، فأوصلوا خط الخنادق إليه. (الطبري 2088/1 و 2091).[4]

من الصعب جداً التحقق مما حصل بعد تخييم الجيشين قرب اليرموك، ويعود ذلك إلى ميل المصادر إلى الخلط بين أحداث اليرموك وأحداث معركة سبقتها في فلسطين (أجنادين في التراث العربي). ويرجع الالتباس إلى تطابق هذين الحدثين في عدة نواح. ففي المعركتين كان العرب بقيادة الرجال نفسهم، أي خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة. كما كان هدف المعركتين واحد، إحباط هجوم العدو المضاد بحشد كل القوات المتوافرة. وفي الحالتين تقدم البيزنطيون من الشمال وكان قائدهم العام ثيودوروس، بينما تولى القيادة في أجنادين أخو الإمبراطور، وفي اليرموك تولاها ساكيلاريوس. بالإضافة إلى هذه النقاط، نجد تطابقاً أيضاً في أسماء الأمكنة. فالمعركة الأولى جرت في جوار جباثا ويرموكا (أو جرموكا) بينما جرت الثانية بين الجابية (في السريانية "جبيثا") واليرموك.

ظل هذا التطابق بديهياً وأمراً مسلماً به لفترة طويلة من الزمن. لكن الترتيب الزمني لأحداث الفتح العربي لسورية لا يزال بحد ذاته مشكلة رغم العمل الريادي الذي قام به فلهوزن وكيتاني ودي غُويه، وآخرون.(5) لسنا هنا في صدد حل هذه المسألة، بل باستطاعتنا قول ما يعيد المصداقية إلى الترتيب الزمني للأحداث التاريخية لثيوفانس، وهو أهم مصدر تناول هذه الفترة. إن دي غُويه هو الذي قلل من شأن تأريخات ثيوفانس لأحداث بزعمه أن الإشارة إلى الجابية إنما هي إلى وقعة اليرموك.(6) إن هذه الرؤية، على رغم اعتبارها صحيحة في بعض المصادر السريانية، تحول دون قراءة مترابطة لثيوفانس.(7) إن أهمية تناسق هذا السجل التاريخي الوحيد

تكمن في أنه يفرق بين المعركة الأساسية التي جرت في فلسطين وبين تلك التي جرت في الجولان، في حين أن كل المصادر الأخرى غير واضحة بهذا الخصوص. يرى دي غُويه أن التناقض في المصادر العربية للأحداث التاريخية يبرر على أنه ناتج عن الخلط بين يرموك ويرموخا،[8] لكنه امتنع عن معاملة ثيوفانس معاملة مماثلة. ولا يستبعد أبداً أن تكون التأريخات البيزنطية قد خلطت بين جبيتا وجباتا، فذكرت الأولى حيث فلسطين هي المقصودة بكل وضوح.[9] ويساعد هذا الافتراض نفسه على حل الالتباس عند دثسمُس (حيث يظهر اسم المكان في نهاية الرواية التاريخيَةَ لعام 6121). من المعروف أن ثيوفانس اعتمد على المصادر السريانية، ونتيجة لتغاضيه عن أخطاء وقع فيها النساخ أو عيوب ظهرت على الوثائق المصنوعة من الجلد، جاء في المصدر الأساسي (بتسمس) أي بثسَمس وهذا المكان، كما جَبَاتا يرموخا[10] يقع في نفس إقلَيم فَلسطين الأولى. وتمتد هذه الأماكن الثلاثة على مسافة عشرة أميال بين الرملة وبيت جبرين، وفي هذه المنطقة بالتحديد تضع المصادر العربية أجنادين.[11] وبفضل قراءة مماثلة أعيد تماسك الترتيب الزمني الذي وضعه ثيوفانس. في الحقيقة، يمكن العودة إلى هذا العمل لتثبيت صحة الرواية الإسلامية للغزوات.[12]

أما المسائل العالقة والمتعلقة بشدة القتال وتحديد الذين شاركوا في المعركة وتسلسل الأحداث فلا نملك معلومات دقيقة بشأنها. دعونا ننظر في كل مسألة على حدة. بالنسبة إلى الجيش العربي، فقد تراوحت تقديرات قوته في المصادر الإسلامية بين أربعة وعشرين ألفاً وستة وأربعين ألفاً في

حين أن ثيوفانس يقدرها بأربعين ألفاً، وتخلو المصادر المسيحية من أية تقديرات. أما العلماء المعاصرون، مثل بكَر وحتّي، فانهم يميلون إلى الرقم الأصغر، دون العمل عَلى التأكد من دقة المصادر. ولدينا ما يؤكد أن قوة العرب في سورية وصلت إلى سبعة وعشرين ألفاً قبل المعركة الكبرى الأولى. (الطبري 2079/1، 2082–2087) بالتالي، فإن الرقم البالغ أربعة وعشرين ألفاً يعتبر مقبولاً بالنسبة إلى أجنادين (عام 634 م/13 للهجرة) وليس بالنسبة إلى معركة اليرموك التي جرت في ما بعد (عام 636 م/15 للهجرة). طوال هاتين السنتين مني المسلمون بهزائم لم تكن وخيمة العواقب، وظلوا يتلقون التعزيزات من المدينة، كما يتلقون الدعم من المتطوعين السوريين العرب. مثل هذا الدليل يوحي بأن الرقم الدقيق هو أعلى من ذلك. من جهة أخرى، يعتبر العدد ستة وأربعين ألفاً مرتفعاً جداً بما أنه ناتج عن حساب خاطئ لثلاث فرق عسكرية. (ابن عساكر 546/1) وكان رجال خالد بن سعيد الذين بلغ عددهم ثلاثة آلاف قد دمجوا في الفرق الأخرى منذ بداية الغزو. وإذا كان خالد بن الوليد علي رأس عشرة آلاف رجل، فذلك يعني أن قواته ضمت عدداً من الرجال يفوق عدد الرجال في الفرقة الأساسية التي خرجت من العراق. أما عكرمة، فلم يتول قيادة أي قوة في اليرموك لأنه كان من بين الأبطال الذين قضوا في أجنادين. بالتالي، فإن الرقم ستة وثلاثين ألفاً الذي أعطاه سيف بن عمر هو الأقرب إلى العدد الإجمالي للقوات العربية التي شاركت في اليرموك.

إلى جانب الأرقام، يجدر النظر في تشكيلة القوات. لم يوضح المؤرخون إلا في فترة متأخرة أن الجيش العربي في

سورية كان أكثر من مجرد قبائل بدوية جمعت اعتباطياً تحت إمرة قادة مسلمين.[13] في الحقيقة، لم تضم الفرق في اليرموك سوى عدد قليل من البدو (نعني هنا بدو الصحراء) إذ إن الأغلبية الساحقة كانت مؤلفة من المجتمعات الحضرية وشبه البدوية التي أتت من أقاليم جنوب الجزيرة العربية، والحجاز، والمناطق الحدودية المتاخمة لسورية (ابن عساكر 535/1). على الرغم من النقص في التفاصيل، فإن المصادر تلمح إلى أن الجيش كان في غالبيته من الجنود المشاة المسلحين بالرماح والسيوف، والأقواس (ابن عساكر 532/1- 533 و 535- 543). وقد افتقر سلاح الفرسان والمشاة على حد سواء إلى الدروع والخوذ. من جهة أخرى، لم يخل التكتيك الحربي والتنظيم العسكري لهذا الجيش من بعض الحنكة. فلقد نظمت الفرق في وحدات (غير محددة الحجم والتراتب)[14] وانتشرت في تشكيلات من صفوف واحتلت مواقع في الوسط، أو الأجنحة، أو الدفاع الأمامي، أو الدفاع الخلفي. وكان القادة على دراية واسعة بمبادئ حماية الأجنحة والدفاع.

أما بالنسبة إلى الجيش البيزنطي، فتعددت تقديرات قوته، وتبالغ المصادر العربية كثيراً في عديد الفرق البيزنطية، إذ تتراوح الأرقام عندها بين ثمانين ألفاً ومئتين وأربعين ألفاً. هذه المبالغة في قوة العدو لها دور متعارف عليه. فالمصادر بإظهارها أن الجيش البيزنطي ضخم للغاية، إنما تظهر عظمة النصر الذي منحه الله للمسلمين. وبالتالي، لا تعطينا هذه المصادر التقدير الأفضل لقوة الجيش البيزنطي. وكذلك لا يمكن أن يكون هرقل قد أنزل إلى ميدان القتال ضد العرب عدداً قليلاً من الجنود. فالمعروف عن البيزنطيين أنهم لا

يستخدمون جيوشاً بهذه الضخامة. كما إن ميزانية الإمبراطورية لم تكن لتسمح باتفاق أموال طائلة على الجيش، نتيجة لضيق حالتها المادية آنذاك. وإذا ما نظرنا في المصادر المسيحية، فإننا سنجد أرقاماً ليست واقعية وحسب بل متماسكة ومترابطة أيضاً.[15] تشير هذه المصادر إلى أنه كان بإمكان ثيودورس وبَنّس حشد قوة مجموعها سبعون ألف رجل مقاتل منهم أربعون ألفاً في اليرموك. كما يمكن تفسير استنزاف القوات كالتالي: 1) كان على البيزنطيين حماية المدن التي عادوا واسترجعوها مؤخراً من العرب. 2) كما كان عليهم حماية خطوط اتصالاتهم وإمداداتهم. 3) انسحب حلفاؤهم السوريون العرب من القتال في اليرموك. ويبدو بالتالي أن الأعداد المشتركة في القتال متكافئة إلى حد بعيد.

لقد نشر البيزنطيون فرقاً متفوقة من حيث التدريب والتجهيز هي فرق الخيالة الثقيلة، غير أن فرق الصدام هذه لم تشكل سوى جزء بسيط من القوات البيزنطية. كما تضمن الجيش في اليرموك، مثل أي قوة ميدانية، فرقاً حدودية (حاميات ومجموعات الدفاع المحلي) بالإضافة إلى قوات أجنبية تعمل في خدمة الدولة البيزنطية. وقد تحدثت المصادر عن فرق عسكرية مكونة من الأرمن والمسيحيين العرب بقيادة جرجايا وجبلة بن الأيهم على التوالي. كمل ذكرت أن هرقل أرسل قوات من شمالي سورية والجزيرة (منطقة بلاد ما بين النهرين العليا). ولا بد أن هذه الفرق كانت فرقاً محلية فرض التجنيد على رجالها أو أنها كانت حاميات، حيث أن القوات البيزنطية تألفت في غالبيتها من الجنود المشاة «الطبري 2089/1».
نلاحظ أن مثل هذه السيطرة للمشاة (بمعدل 1: 2 من الجيش)

ليست أمراً مألوفاً في الجيوش البيزنطية.[16] ربما يعود ذلك إلى أن هرقل أمر بإرسال عشرة آلاف جندي ليس إلا. وهي تلك التي سارت مع ثيودورس.[17] في كل الأحوال، كان بإمكان هذا العدد من الخيالة الثقيلة أن يضع العرب في موقف صعب للغاية لو أنه كان معززاً بالشكل الضروري.

في الواقع، لم تكن الخيل الثقيلة معززة بالشكل الكافي، إذ لم يملك البيزنطيون احتياطياً كافياً من الفرسان للدعم والإسناد عند الحاجة. تشكك هذه الملاحظة بالدور الذي قام به الأمير جبلة بن الأيهم. فقد قاد جبلة جيش المسيحيين العرب الذي شكل قوة الخيالة الخفيفة في الجيش البيزنطي. ولم يوثق دور جبلة في اليرموك كما يجب، إلا أن أثراً مكتوباً واحداً يؤكد أنه انحاز (التشديد مني) إلى جانب الأنصار (البلاذري: فتوح البلدان. 136).[18] لكن، في غياب الأدلة الموثوقة التي تبين الطرف الذي انحاز إليه جبلة وقاتل إلى جانبه، يبدو لنا أنه ورجاله قد انسحبوا بكل بساطة من القتال قبل المعركة النهائية.[19]

وكما هي الحال عند جبلة، هناك أسئلة عديدة تطرح حول دور القائد الأرميني جورجيوس (جَرَجَة، جُرجيس). ووفقاً لرواية أبي حذيفة، فإنه كان إلى جانب البيزنطيين أثناء القتال، بينما يروي سيف بن عمر أنه اعتنق الإسلام قبل المعركة مباشرة وأنه مات وهو يقاتل من أجل المسلمين، انظر: ابن عساكر (541/1 و 547) والطبري (2097/1- 99). وليس مستبعداً أن تكون رواية أبي حذيفة قد خرجت عن إطار الأحداث، بما أنها ذكرت شجاراً حصل بين جورجيوس وبوكيناتُر (قناطور) ما يظهر استعداد جورجيوس للارتداد. لقد وصف الطبري

مطولاً اعتناق جورجيوس الإسلام والأحداث التي تلت ذلك. على الأرجح أن هذا الحدث قد روي مطولاً لإظهار مدى جاذبية الإسلام. لكننا نتساءل عن مدى مساعدة جورجيوس للقادة المسلمين من حيث التكتيك والتخطيط، ومن حيث المعلومات المتعلقة بأوضاع الجيش البيزنطي العامة وبخطته في المعركة.

وبغض النظر عن المساهمين في وضع الاستراتيجية، تبقى حقيقة واحدة وهي أن العرب انتصروا في نهاية المطاف الأمر الذي يعد أكثر أهمية من تحديد القائد الفعلي للمعركة. إن المدونات العربية المتعددة تعطي انطباعات مختلفة، لكن الغالبية ترى أن أبا عبيدة بن الجراح كان القائد العام الفعلي. أما خالد بن الوليد فقد لعب، دون منازع، الدور الأهم في تحقيق النصر. لم يكن هذا الأخير قائد الفرسان وحسب، بل أدار أيضاً تنظيم القوات الأمامية قبل بداية المعركة مباشرةً. لقد وضع نفسه في ميمنة الجيش، وهو الموقع الأخطر في المواجهة، إذ إن الميسرة كانت آمنة بسبب امتداد النهر بإزائها، وقاد الهجوم المضاد الذي دفع قوة الفرسان البيزنطية الثقيلة إلى الوراء. لهذه الأسباب، فإن خالداً بن الوليد هو أكثر من يستحق أن يثنى عليه في هذا الانتصار الكبير، وان لم يكن في منصب القائد العام للجيوش.

لقد هزم خالد بن الوليد الخيالة الثقيلة بتكتيك الهجوم الالتفافي، وهي خطة تقتضي إجبار قوات العدو على البقاء في أماكن تواجدها. وقد أمكن تنفيذ هذه الخطة لأن زخم هجوم قوات الفرسان البيزنطيين قد كان تضاءل بعد أن دفعوا جيوش العرب إلى الوراء باتجاه معسكرهم. وبالتالي، فإن ما جرى في ميدان المعركة مسألة ذات أهمية كبرى. تقدم لنا

المصادر حيالها وجهات نظر مختلفة، وتتعدد الروايات الإسلامية ومنها رواية سيف بن عمر الضبي الذي اعتبر بكل بساطة أن شجاعة العرب هي التي كانت العنصر الحاسم وراء صمودهم وانتصارهم «الطبري 2097/I-99» بينما يعتبر أبو حذيفة في روايته أن شجاعة المقاتلين قد برزت بعد أن جابهت النساء الرجال المتراجعين أمام الضغط البيزنطي بالتوبيخ الساخر كما ألقين عليهم الحجارة وعمد الخيام «ابن عساكر 539/I، 541 و 543». قد تتضمن هذه الرواية بعض الحقائق إلا أنها قد لا تفسر لنا تفصيلاً كيف استطاع العرب إعادة رص صفوفهم بعد أن قد كانوا انكشفوا وعمتهم الفوضى، وبالتالي استطاعوا مواجهة قوة الفرسان البيزنطية المندفعة باتجاههم. من ناحية أخرى، تعتبر المصادر المسيحية أن انسحاب العرب لم يكن سوى مجرد خدعة أحكم تنفيذها.[20] يروي سبيوس أن العرب قد كانوا نظموا جمالهم على شكل مجموعات ركزت حول المعسكر للدفاع عنه. وعندما دخلت الخيالة الثقيلة معسكر المسلمين، جابههم المشاة المتمركزون في هذه المواقع بالذات. وبما أن الجمال كانت مقيدةً ومشدودة إلى بعضها البعض كان من الصعب اختراقها، فأصبح الفرسان البيزنطيون، على الأرجح، أهدافاً سهلةً للنبّالة العرب، خاصةً وأن زخم اندفاعهم قد خف تدريجياً.

إن هذا التكتيك العسكري الغريب ضاهى التقنيات العسكرية الحديثة في أساليب الدفاع ضد قوى الفرسان المهاجمة وتفوق عليها. كما أنه يظهر دهاء القادة العسكريين العرب وحنكتهم القتالية. أما في لغة العلوم العسكرية فإنه

يعتبر أكثر التفسيرات التي يمكن أن تنطبق على تحول مجرى الأحداث في ميدان القتال. إضافة إلى ذلك، فإن المصدر الذي تحدث عن هذا التكتيك يتمتع بمصداقية عالية، إذ أنه يُعتبر النص الوحيد المعاصر لهذا الحدث. لكن السؤال يطرح نفسه عن سبب عدم إدراج هذا التقرير في المصادر التاريخية المتأخرة. قد يعود ذلك إلى أن البيزنطيين قد غابت عنهم مثل هذه التفاصيل أو افتقدوها، وأن المسلمين ربما أرادوا إبقاءها طي الكتمان لغاية ما في نفوسهم. أما المؤرخون الذين دونوا التراث العربي فقد أرادوا التركيز على إبراز الروح الجهادية التي تميز بها المقاتلون المسلمون وقادتهم، لذا فقد أهملوا إلى حد بعيد الإشارة إلى الناحية الدفاعية.

استناداً إلى معظم المصادر فإن هزيمة قوات المشاة البيزنطيين قد جاءت بعد انلحار قوات الفرسان البيزنطية الثقيلة. وحده ثيوفانس هو الذي ذكر أن تمرداً قد حصل بين هاتين الهزيمتين. إن عدم ذكر ذلك في المصادر الأخرى لا يقلل بالضرورة مما قاله ثيوفانيس. ومن المرجح أن سوء قيادة ساكيلاريوس لهجوم قوة الفرسان البيزنطية أدى إلى تمرد الفرق الأخرى (أو على الأقل معظمها) ومطالبتها ببنّس ليكون إمبراطوراً عليهم. وكان اعتلاء الأباطرة عرش بيزنطية استناداً إلى رغبة الجيش أمراً مألوفاً في التاريخ البيزنطي. إضافة إلى ذلك، يعود اختيارهم بنّس إلى كونه ترأس قوات بيزنطية محلية لعدة سنوات خلت، والأرجح أنه كان محبوباً في صفوف الجيش البيزنطي. إن هذا التمرد لم يشر إليه في أي مصدر آخر، لكن مصدراً واحداً على الأقل أفاد بأن الظروف التي كانت سائدة آنذاك تساعد على حدوث مثل هذا الأمر. فبحسب

رواية أُويتيخُيوس فإن دفع مرتبات الفرق العسكرية البيزنطية علق مؤقتاً،[21] ولا شك أن مثل هذا التقصير من الإدارة العسكرية البيزنطية أدى إلى مثل هذا الشقاق.

إذا كان الجيش البيزنطي قد عانى، في الواقع، هذا القدر من الصدمات، فإنه لم يكن أمام بنَس سوى أن يتحول كلياً إلى الدفاع. لكن شاء القدر أن لا يقوم بانسحاب عسكري منظم. فقد قضى معظم الجيش البيزنطي عامة تلك الليلة وهو يحاول الهبوط إلى بطن الوادي (عند نقطة التقاء الرُّقَّاد واليرموك). وتجمع كل المصادر على هذا الحدث، لكنها لا تتفق على المسببات التي أدت إلى مثل هذه الكارثة. فمن بين الروايات التي تتحدث عنها بالتفصيل رواية ترجع أسباب الهزيمة إلى الانخداع، في حين ترجعه روايتان أخريان إلى هجوم مضاد عنيف قام به العرب، وأخرى تردها إلى الذعر الكبير الذي سببه احتمال تطويقهم من قبل جيوش العرب. من الناحية النظرية، فإن كل هذه التفسيرات يمكن أن تعتبر معقولة، لكن هذه التقارير المختلفة لا تستحق أن تنال قدراً متساوياً من الثقة.

وأقل الروايات مصداقية كانت رواية أُويتيخُيوس، التي تزعم أن البيزنطيين ذعروا عندما حسبوا موكب قسيسين كان يسير وراءهم قوة عربية.[22] يميل هذا المصدر في مجمله إلى لوم رجال الدين المحليين وتحميلهم مسؤولية كل الكوارث التي حلت بالبيزنطيين في سورية. فضلاً عن ذلك، إن ما تؤكده هذه الرواية أقل موضوعية مما لمحت إليه من أن العرب كانوا يسيطرون على طريق الشام. وتظهر هذه الحالة نفسها في رواية أبو الجعيد الذي وصف كيف أن عربياً من

بلاد سورية لجأ إلى خدعة تسببت بالكارثة التي حلت بالبيزنطيين (ابن عساكر 534/1). وهذه الخدعة المشار إليها يصعب فهمها. لكن الرأي القائل بأن أبو الجعيد قد تعاون مع الفرسان المسلمين، وأن هؤلاء كانوا يسيطرون على الطريق والجسر الواقعين قرب المعسكر البيزنطي، جدير أن نأخذ به. كما أنه يلحظ محاولة جدية لعرقلة انسحاب البيزنطيين. وقد يكون عربي من المنطقة قد أرشد المسلمين الذين كانوا يسيرون ليلاً في بلاد لم يألفوها. قصة الخدعة هذه ما هي إلا رواية مبالغ فيها لإحياء ذكرى أفعال هذا الرجل.

قد تكون قوة الصد العربية قد انفصلت عن سلاح الفرسان المسلمين الذي أرسل للحاق بالخيالة الثقيلة، أو عن قوة الجيش الأساسية التي كانت ترابط بالقرب من معسكر المسلمين. في كلتا الحالتين يتطلب تغيير الموقع وقتاً معيناً. هذا بالإضافة إلى اعتبارات أخرى تشير إلى أن ساعات عدة قد فصلت بين هزيمة الخيالة الثقيلة وهزيمة جيش المشاة البيزنطي.[23] ويشير مصدران آخران إلى أن العرب شنوا هجوماً مضاداً عنيفاً على الفور (ابن عساكر 544/1 و 547، والطبري 2099/1). لكن سبب هذا الانطباع يرجع إلى تداخل الأحداث في مثل هذا البحث. يبقى سؤال واحد مرتبط بالموضوع ارتباطاً وثيقاً وهو التالي: إلى أي مدى ألح العرب في ملاحقة أعدائهم؟ حسب رواية أبو حذيفة فقد توقف هجوم العرب المضاد بعد مطاردات طويلة. أما إحدى صيغ رواية سيف بن عمر الضبي (الطبري) فقد أقرت بأن العرب لاحقوا البيزنطيين حتى خنادقهم. لكن هذا الأخير يخلط في روايته تلك بين معركتي اليرموك وأجنادين، والدليل على ذلك أنه

أتى على ذكر موت عكرمة. لذلك، فإن الرواية الأولى كانت أكثر دقة في سرد الأحداث.

مع إيجاد حل للمفارقات الواردة، يمكننا الآن الانتقال إلى إعادة بناء معركة اليرموك. إن القائد البيزنطي هو الذي بدأ المعركة، لأن أي تأخير كان بإمكانه أن يحرض العدو عليه. وعلى الرغم من فرار سلاح الفرسان الحليف، إلا أن الجيش البيزنطي ظل في أفضل حالاته، وقد كان عبأ قواته في وحدتين، الأولى مؤلفة من خيالة ثقيلة نظمت في صف واحد، والثانية من مشاة في أغلبها. وربما كان البعض منهم قد قيدوا سوياً كي يحافظوا على ثبات صفوفهم. وقد نظمت هذه الوحدة ككردوسة ليتجمع خلفها الخيالة عند الضرورة.

عبأ العرب قواتهم أمام معسكرهم مباشرةً، وقد اتبعوا في تعبئتهم نفس الأسلوب البيزنطي. لكن خالد بن الوليد أدرك أن قوات فرسانه لم تكن كافيةً لمواجهة الخيالة الثقيلة. لذلك، قسم جيشه إلى فرقتين، ووضع فرقة وراء كل جناح من أجنحة قوة المشاة عند خط الاشتباك، حتى يتفادى أي محاولة يقوم بها البيزنطيون لتطويق الجيش العربي. كما تشكلت قوة مؤلفة من (200) إلى (300) مقاتل تم اختيارهم لدعم قوة وسط خط الاشتباك، أما النبّالة فقد تمركزوا في المواقع الأنسب بالنسبة إليهم.

افتتح البيزنطيون المعركة بالهجوم على ميمنة العرب، وعندما فشلوا في الالتفاف حوله، انتقلوا للهجوم باتجاه الميسرة. وقد تم صد هذه المحاولة أيضاً، لكن البيزنطيين تابعوا هجومهم إلى أن اقتحموا خط المواجهة العربي الأول وأجبروهم على التراجع. لاحق الخيالة الثقيلة العرب حتى

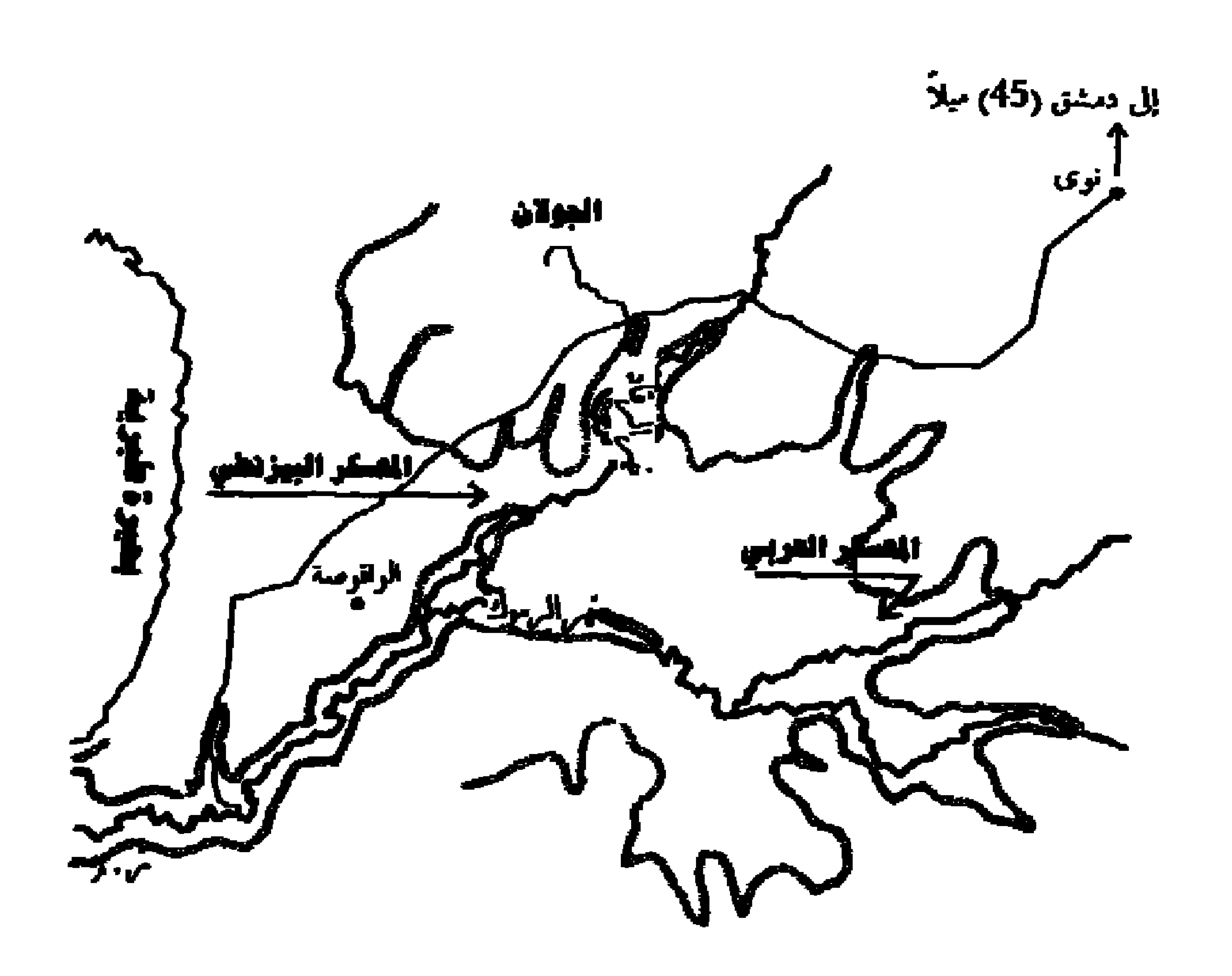
أوصلوهم إلى معسكرهم، حيث تمركز هؤلاء خلف مجموعات الجمال المقيدة. لا شك في أن هذا التكتيك قد أوقف تقدم قوات البيزنطيين. في هذه الأثناء تحمس البيزنطيون لملاحقة جيش المشاة العربي الذي تقهقر، فتركوا أجنحتهم مكشوفة. استغل العرب هذه الفرصة على الفور وقاموا بتطويق الجيش البيزنطي من الجانبين. عندئذ وجد الفرسان البيزنطيون أن العرب يفوقونهم عدداً ويهاجمونهم من كافة الاتجاهات، وأنهم معزولون عن المشاة الذين ابتعدوا لمسافة بعيدة، فأصبحوا غير قادرين على مساندتهم. عندها حاول الخيالة الثقيلة أن يفكوا الحصار، ففتح لهم خالد ممراً للهرب، إذ كان يدرك تماماً أن عدواً يائساً هو عدو خطير جداً. لكنه أجبرهم على الانسحاب نحو الشمال أي بعيداً عن مشاتهم. كما أرسل قوة لملاحقتهم حتى لا يتيح لهم أي فرصة لإعادة تنظيم صفوفهم.

بعد أن تخلص العرب من فرسان أعدائهم في ميدان المعركة، انصرفوا إلى إعادة تنظيم خط الاشتباك. كان على القوات البيزنطية المتبقية أن تستفيد من فترة وقف القتال هذه وتنسحب بانتظام. لكن بسبب تمرد الجنود، أو ربما لسبب آخر، لم تتحرك القوات البيزنطية. ولما استؤنف القتال من جديد كانت معنويات البيزنطيين قد انهارت تماماً، فما أن شن العرب هجوماً مضاداً استولوا من خلاله على الطرق المؤدية إلى الشمال، حتى دب الذعر في نفوس البيزنطيين. هذا الذعر أودى بحياة الآلاف من المقاتلين الذين هربوا باتجاه الغرب ملقين بأنفسهم في النهر.

لدى التفكير بهذا السيناريو، ينظر المرء إلى عامل أو أكثر لتبرير الانتصار العربي. ولعل العامل الأوضح في ذلك هو دون شك تفوق قيادتهم، ليس من ناحية التكتيك الناجح وحسب، بل أيضاً من ناحية رص الصفوف وتماسكها. أمّا القيادة البيزنطية فتعطي انطباعاً مغايراً تماماً، إذ سيطر عليهم شعور بعدم الثقة، ويظهر ذلك من خلال انسحاب جبلة بن الأيهم وارتداد جورجيوس، وفقدان الثقة في ثيودورس، وأخيراً التمرد الذي طالب بقيادة بَنّس. وعلى الرغم من كل هذه النزاعات، كان بإمكان البيزنطيين أن ينتصروا لولا أن ساكيلاريوس قد أساء تقدير قوة خصمه.

أما بالنسبة إلى العرب، فقد تفوق دهاء خالد بن الوليد على تكتيكات ثيودورس العسكرية التقليدية إذ استبق القائد المسلم تحركات البيزنطيين، فكانت كل وحدة من الجنود متمركزة بشكل يعزز الدفاع، وكانت الخطة الدفاعية مرنة بما فيه الكفاية، حيث أنها سمحت بتطويق القوة المهاجمة.

أخيراً، لا بد من التأكيد على أن هذه المعركة كانت نصراً دفاعياً للعرب. ورغم أن هذا الاكتشاف لا يتناسب والصورة الشعبية للفاتحين العرب، إلا أنه يبقى صحيحاً. بالنتيجة، إن وقفة المشاة المسلمين الصلبة غيرت مجرى المعركة لصالح العرب، فما كان على قوة الفرسان سوى أن تغتنم هذه الفرصة للانقضاض.



معركة اليرموك

هوامش: ‹معركة اليرموك›

*John W. Jandora, The Battle of the Yarmuk: a Reconstructin. Journal of Asian History. Vol. 19/1 (1985) Otto Harrassowitz, Wiesbaden.

1) يصعب تحديد تاريخ المعركة الأخيرة، وذلك نتيجةً لغموض المصادر. ولكن، من الواضح أن المعركة حصلت تقريباً في (20 آب / 12 رجب).

2) يحتوي كتاب ‹فتوح الشام› الذي يعتبر عادةً منسوب إلى الواقدي، وصفاً مطولاً للاشتباكات في اليرموك، إلا أن مصداقية هذا المصدر مشكوك فيها. فالكتاب عبارة عن رواية بطولات تاريخية، لذا فإنه يجمع بين الواقع والخيال في مؤلف متعدد الأساليب. مع ذلك، فإن المخطط العام للرواية ملفت للنظر من حيث نقاط الشبه بينه وبين روايات الوليد بن مسلم وأبو حذيفة اسحق بن بشر التي تظهر عند ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق. تحقيق صلاح الدين المنجد. دمشق، المجمع العلمي العربي، 1951، 531/1 - 545. إن الكتاب الأخير هو جهد علمي بينما الكتاب المنسوب إلى الواقدي لا يتمتع بهذه الصفة. لهذا التشابه تفسيران منطقيان. فإما أن يكون الكتاب المنسوب للواقدي يعتمد أساساً على ابن عساكر وإما أن يكون للكتابين مصادر مشتركة. في كلتا الحالتين دلالة واضحة على وجود عدة روايات حول هذه المعركة. فروايات الوليدوأبو حذيفة تضيف الكثير من التفاصيل إلى الروايات التي تُعتمد في غالب الأحيان (أي روايات ابن اسحق وسيف بن عمر). أنظر كتاب فرد دونّر المشار إليه في الهامش. وهذه الروايات الأربعة تستحق أن تؤخذ بعين الاعتبار.

3 - C. H. Becker, "The Expansion of the Saracens", Cambridge Medieval History, II (1913), 344.

يمكننا صرف النظر عن وصف جون غلوب للمعركة لأنه مجرد تخمين. انظر:
The Great Arab Conquests, (Englewood Cliffs, Prentice Hall, 1967) pp. 174 - 179.

4 - al-Tabari, Tarikh al-Rusul wa al-Muluk (Annales), ed. M. J. de Goije et al. (Leiden, E. J. Brill, 1964-65), I, 2088 and 2091.

5) تفادى فْرِد دونَر، في آخر أعماله، الالتزام بأي تزامن محدد للأحداث. أنظر:
F. Donner, Early Islamic Conquests, pp. 128, 146.

6- M. J. de Goeje, "Memoire sur la Conquete de la Syrie", 2nd, Memoires d'Histoire et de Geographie Orientales, (Leiden, E. J. Brill, 1990) pp. 119-120.

7) (Dionysius of Tell-Mahre) يذكر في ملخص يعالج فيه فتح سورية اسماً واحداً فقط هو:

Gabitha, Chronique de Denys de Tell-Mahre, ed. And trans. J-B. Chabot (Paris, Libraire Emile Bouillon, 1895), p. 6.

ويصعب تفسير الجزء الذي نشره نلدكه بسبب الثغرات التي تعتريه. مع ذلك، نجد اسم (Gabitha) في نص يبدو أنه وصف لمعركة اليرموك. انظر:

"Zur Geschichte der Araber im 1. Jh. D. Hig. Aus syrischen Quellen" Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft, XXIX! 1875, 78.

أما بالنسبة إلى تأريخات ميخائيل السوري، وهي مصدر متأخر نسبياً، فإن النص الذي يشير إلى (Gabitha) تشوبه بعض النواقص. إن التحوير الملحوظ قد يعكس محاولة للتوفيق بين مصادر لا تنسجم فيما بينها.

8- De Goeje, pp. 50-63.

9- Theophanes, The Chronicle of Theophanes, trans. Harry Turtledove (University of Pennsylvania Press, 1982), pp. 34 and 37.

وهذا يسري أيضاً على الروايات التي تنتهي في عام (6121) وتبدأ في عام (5126).

10- See Plate 54 (Palestine According to Eusebius and Jerome) in George Adam Smith (ed.), Atlas of the Historical Geography of the Holy Land, (London, Hodder and Sttoughton, 1915).

11) ابن الأثير، الكامل في التاريخ بيروت: دار صادر ودار بيروت، (1965) 2/ 417. لطالما احتار الباحثون في أمر تركيبة اسم المكان "أجنادين" بالتحديد في

تثنية جمع التكسير. أنظر مثلاً في "Mémoire" لـ (de Goeje) الذي يلجأ إلى علم المعاني ليفسر هذا الخروج عن القاعدة. إلا أن هذه الكلمة ليست مشتقة بالضرورة من الكلمة العربية جند وقد لاحظ أحدهم أن الكتابة العربية القديمة، لخلوها من التنقيط، أدت دون شك إلى التباس في قراءة الأسماء الغامضة للأمكنة. فمثلاً، كلمة يلقوصة (واقوصة) لها أشكال مختلفة، متفق عليها، وهي ناقوصة وبلقوصة. من المحتمل بالتالي أن تكون أجنادين قراءة خاطئة لأحرف يراد بها أجيادين أي القمتين. قد تدل بالتالي هذه الكلمة على أن المعركة حصلت في المكان الذي يفصل فيه وادي الصرر مرتفعات غربي فلسطين.

12- Donner, p. 145.

13- M. A. Shabab, Islamic History, A. D. 600-750 (A. H: 132) A New Interpretation (Cambridge University Press, 1971), pp. 24-27, 40, and especially Donner, pp. 221-226.

14) إن كلمة كردوس، رغم أنها ذكرت بشكل مرتبط مع اليرموك إلا أنها في الحقيقة تعود إلى حقبة لاحقة. أنظر: الطبري، الجزء الثاني، 1944.

15) المصادر ذات العلاقة هي الآتي ذكرها:

Theophanes, Michael the Syrian, Nöldeke's Syriac fragment, and Sebeos, Histoire d'Héraclius, trans. Frédéric Macler (Paris, Imprimerie National, 1904).

16) كانت الخيل الثقيلة هي القوة التي يُعتمد عليها في الحروب البيزنطية. وكانت المعارك عادة سلسلة متتالية من المهمات المناطة بالخيالة. أما المشاة، التي لم تشكل سوى جزءٍ صغيراً من الجيش مقارنة مع الخيالة، فمهمتها التمهيد للمواجهة، والدفاع عن المعسكرات، وفي حالات أخرى، دعم الخيالة. فيما يخص فنون الحرب البيزنطية أنظر:

Charles Oman, "The Art of War in the Middle Ages" (Boston and New York, Houghtonk Mifflin Company, 1924), I, Bk, iv, chap. ii.

17- See Michael the Syrian, II, 420-421 and also the reference to (the Sakellarios' troops), p. 136.

18- al-Baladhuri, Futuḥ al-Buldan, ed. M. J. de Goeje (Leiden: E. J.

Brill, 1866), p. 136.

19) لم يوصف جبلة بأنه يحارب المسلمين في اليرموك إلا فيما نسب إلى الواقدي. لكننا استبعدنا مصداقية ما نسب إليه في بداية هذه المناقشة. أما في الرواية المنقولة عن ابن اسحق فقد بلغ حجم القوات العربية السورية اثني عشر ألفاً. وبما أن هذا المصدر يبالغ في تقدير حجم القوة البيزنطية ويضاعفه، فعلى ما يبدو أنه بالغ أيضاً في تقدير الفرقة التي كانت بقيادة جبلة.

20- Nicephoras, De Rebus Mauricium Cestis, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, XXXII (1837), p. 27 and Sebeos, pp. 97-98.

21- Eutychius (سعيد بن البطريق) Annales, ed. J. Selden, trans. Edward Pocock(Oxford, 1654-56). II 273-274.

من الوارد جداً أن يكون حدث مماثل قد أثر ربما على قرار المسلمين في فتح سورية. ذكر ثيوفانوس (سنة 6123) أن مسؤولاً بيزنطياً رفض أن يدفع المترتبات المالية للعرب الموالين له والذين كانوا يقومون على حراسة الأراضي المتاخمة للصحراء. لذلك، طلب هؤلاء العرب السوريون مساعدة المسلمين. هذه حوادث إضافية تعكس الأوضاع المالية الصعبة للبيزنطيين.

22- Eutychius, II, 274.

23) الاعتبارات المرتبطة بهذه الحادثة هي: 1) كان العرب بحاجة إلى الوقت ليعيدوا ترتيب صفوفهم بعد المعركة الضارية التي جرت داخل معسكرهم. 2) إن قوات المشاة البيزنطية تمردت قبل أن يقضي عليها المسلمون. 3) إن الكارثة المذكورة آخراً وقعت خلال الليل.

سجل الأسماء

أُويتيخُيوس	Eutychius
بتسمس/ بشتَمس	Bethsames
بوكيناتُر (قَناطُور)	(Qanatur) Buccinator
جرجايا	Georgius, Jarja
جورجيوس (جَرجَة، جُرجيس)	(Jurjis, jaraja) Georgius
الخيالة الثقيلة	Cataphractic
دثسمُس	Dethesmos
يرموخا، غاباتا	Jermucha, Gabatha
ياموخا، ياموك	Yamucha, Yamuk
المذهب الأحادي	Monothelitism
باهان، ماهان	Mahan, Bahan, Baanes
بكَر	Becker. H. C
ثيودوروس (تضاريق)	Theodorus
جباثا	Gabatha
جبيثا	Gabitha
جرموكا	Jermucha
دي غُويه	De Goeje
ساكيلاريوس	Sacellarius
فلهَوْزن	Wellhausen
كيتاني	Caetani
هرقل	Herclius
يقوثا	Jakutha
يرموكا	Yarmucha

معركة هليوبوليس*

فتح عمرو الفيوم / الموقع الروماني / الاستيلاء على البهنسة / ذبح جون، قائد القوات المدافعة / التحرك الروماني من نيقيوس إلى بابل / الفشل الجزئي للغارة وانسحاب عمرو / وصول التعزيزات الإسلامية / الجيوش العربية تلتقي في هليوبوليس / القوات الرومانية تتقدم من بابل للقتال / تكتيك عمرو / هزيمة الرومان / الاستيلاء الثاني على طندونيا[1] واحتلال الفيوم / معاملة الموظفين الرومان.

ما أن تم اجتياز النهر بأمان، حتى بدأت قوات عمرو بالتقدم نحو الجنوب، إلى ممفس، عبر الأراضي الزراعية. كانت هذه المدينة القديمة (وألتي زالت اليوم كليًا) قد بدأت بالاضمحلال منذ تأسيس الإسكندرية. لكن بعض البقايا والخرائب الشاسعة كانت لا تزال تميز عاصمة الفراعنة آنذاك، كما كان عدد لا بأس به من المنازل لا يزال مأهولاً، رغم أن بلدة مصر، الواقعة جنوب بابل على الضفة الأخرى من النيل، فاقت ممفس بالكثير، سواء من حيث عدد السكان أم من ناحية الأهمية، حتى أنها سلبتها اسمها.[2] من هذا الموقع على الأرجح ومن ضفة النيل الغربية رأى الجيش العربي بوضوح، وللمرة الأولى مدينة مصر وأبراج حصن بابل العظيمة

التي ارتفعت من حافة النيل على الجانب الآخر من جزيرة الروضة. قد يثار رجل كعمرو لدى إطلاله على مثل هذا المنظر؛ فالأهرام إلى يمينه، والنيل وحصن بابل إلى يساره، وآثار ممفس على مقربة منه، بينما لم يعر جيشه المؤلف من مقاتلي الصحراء، أهمية كبرى لهذه الحضارة القديمة، أو للمباني الرومانية والبيزنطية التي اعترضت أنظارهم وهم يشقون طريقهم في بساتين النخيل.

لم تكن مسيرة رحلتهم واضحة مطلقاً. فكان الحاكم دومنتياوس[3] يسيطر على مدينة الفيوم، بينما كان ثيودوسيوس[4] حاكم الإقليم مع أناستاسيوس[5] حاكم إقليم الإسكندرية في الدلتا قرب نيقيوس، فعهد إلى جون[6] قائد قوات الدفاع المحلي بالدفاع عن الإقليم على أن يكون تحت أمرته جون ماروس.[7] كانت الحراسة مشددة على مداخل الفيوم، وقد أقام الرومان مركزاً للمراقبة في حجر اللاهون[8] مهمته متابعة تحركات العدو وإبلاغها جون الذي تمركز عند ضفة النهر.

أرسلت قوة من الخيالة والنبّالة للتصدي للعرب والحؤول دون تقدمهم. أما الجيش العربي، فيبدو أنه وجد اختراق الخط الدفاعي الذي ضربه الرومان أمراً مستحيلاً، فانحرف باتجاه التلال الصحراوية، وفي طريقه، استولى على عدد كبير من الماشية. واصل العرب تقدمهم على هذا النحو حتى وصلوا إلى بلدة تدعى البهنسا فاستولوا عليها بهجوم عاصف، وقتلوا خلاله كل من اعترض سبيلهم من رجال ونساء وأطفال.[9] وفجأة وصلت إلى عمرو معلومات تفيد بأن جون يتعقبه على رأس قوة صغيرة مؤلفة من خمسين رجلاً، وهو يتجسس على تحركاته من مسافة قريبة من قوات دعمه. فقرر عمرو أن يباغته

وينقض عليه. أحس جون بالخطر يداهمه، فحاول جاهداً أن يتراجع بسرعة ليلتحق بمعسكره القريب الواقع في أبويط[10] عند ضفة النهر وخفت فرقته تسري في الليل وتختبئ في النهار داخل بساتين النخيل. لكن شيخاً بدوياً[11] كشف لعمرو عن مخبئهم، فطوقهم هذا الأخير وقتلهم جميعاً بمن فيهم الجنرال جون ومعاونه. والدليل على ذلك أن العرب لم يأخذوا معهم أسرى بعد المعركة.

عندما علم القائد العام ثيودور بأنباء هذه الكارثة، انفجر بالبكاء. وكالعادة، كان قد فات الأوان على أي تحرك للرومان. لكن ثيودور أرسل على وجه السرعة كل الفرق المتواجدة عند النهر إلى جزيرة لوقين، بينما أسرع أناستاسيوس وثيودوسيوس من نيقيوس إلى حصن بابل لتدعيم الحراسة عليه، كما أرسلت قوات أخرى من بابل إلى المعسكر الروماني في أبويط بقيادة جنرال يدعى ليونتيوس. كان هذا الأخير سميناً وكسولاً وليس له دراية بفنون الحرب. فلما وصل إلى المعسكر، وجد أن القوات المصرية بدأت قتالها العرب، وأن ثيودور الذي كان قد زج قواته في الفيوم، يقوم بعدة غارات مفاجئة من داخل الحصن على مراكز القيادة العربية في البهنسا. واعتقاداً منه بأن عمرو سيبتعد عن المنطقة، لم يترك ليونتيوس سوى نصف رجاله مع ثيودور، وعاد بالنصف الآخر ليبلغ القادة المتواجدين في حصن بابل عن مشاهداته على الأرض.

لا شك في أن العرب فشلوا في الاستيلاء على مدينة الفيوم، وأنهم شرعوا بالتراجع نزولاً نحو النهر متجهين مرة أخرى نحو الشمال. في هذه الأثناء، أصدر ثيودور أوامره بالبحث

عن جثة الجنرال جون التي قد كانت ألقيت في مياه النيل، وأخيراً انتشلت الجثة بواسطة الشباك، ثم حنطت ووضعت في نعش وأجريت لها مراسم جنائزية كاملة، ونقلت بعد ذلك في النهر إلى بابل ومنها أرسلت إلى هيراقليوس.(12) لقد كان لهذه الهزيمة المنكرة ولموت الجنرال جون أبلغ الأثر في نفس الإمبراطور، الذي لم يتوان في التعبير عن استيائه لثيودور، مما جعل القائد العام يضمر عداوة عميقة لثيودوسيوس وأناستاسيوس، باعتبار أن تحميله مسؤولية موت جون جاء نتيجة لتقارير قدمها هذان القائدان.

لم تكن الهزيمة الميدانية هي السبب الوحيد وراء انسحاب العرب من الفيوم. لقد قام عمرو على الأرجح بأكثر مما كان يتوقع، إذ خلص جيشه من موقف حرج في تندونياس(13) وفي نفس الوقت نقله إلى مكان آمن نسبياً.

لم يتوقف هذا الجيش عن تحركه وأحرز عدة انتصارات، وان لم تكن هذه الانتصارات باهرة. وفوق ذلك كله ربح المزيد من الوقت. في هذه الأثناء، كانت التعزيزات التي تأخرت كثيراً في طريقها إليه. ولما بلغه نبأ وصولها، غير القائد المسلم خطته حتى يلتقي بالقوات القادمة. كذلك، قدم ثيودور وجيشه إلى بابل، هذه المرة أيضاً عن طريق النهر، وكان قد تجمع لديه جيش ضخم توافد من جهات مصر الأربعة.

بدأت الحملة على الفيوم في بدايات شهر أيار، واستمرت لعدة أسابيع. كانت انعكاسات الأحداث سيئة جداً بالنسبة إلى الرومان، بينما كانت في صالح العرب، إذ وصل الجيش الإسلامي الثاني الذي أرسل عمرو في طلبه إلى جوار هليوبوليس على الأغلب يوم السادس من حزيران.(14) كان

هذا الجيش بقيادة الزبير بن العوام، وهو من أقرباء الرسول ومن أصحابه وأحد مستشاريه الستة، وقد ضم فيلقه أربعة آلاف مقاتل وتبعه بمسافة قصيرة رتلان يضاهيانه قوة، فأصبحت قوات الدعم تضم اثني عشر ألف رجل.[15] كان الرومان، وقد وحدت قواتهم، قلقين من خوض المعارك قبل فيضان النيل، إذ إن منسوب الماء قد كان بدأ في الارتفاع في قنوات النيل العميقة منتصف الصيف تقريباً. لكنهم فشلوا كلياً في منع التحام الجيش العربي المنقسم.

كان الرومان يسيطرون على بابل ويتحكمون بالنهر، كما أنهم قد كانوا احتلوا من جديد مركز المراقبة المحصن في أم دونين، وبالتالي، كان باستطاعتهم مع بعض المهارة والحذر أن يحبطوا كل جهود عمرو في اجتياز النهر من جديد نحو الضفة الشرقية، وأن يقضوا عليه مستغلين انعزاله. ورغم كل ما كانوا يتمتعون به من إمكانات، لم يستطيعوا منع عمرو من مباغتتهم واجتياز النهر بالقوة على ما يبدو. وقد نجح بعبور النهر في منطقة ما من الناحية السفلى إلى الشمال من أم دونين. بما إن قناة طرايان[16] قد طمرها الطمي نتيجة الإهمال، ولم تعد تشكل عائقاً حتى عند ارتفاع مستوى النيل. فقد أدرك عمرو أن التعزيزات الإسلامية كانت تسير في رتلين أحدهما في عين شمس والآخر في هليوبوليس، وأن موقعه عند الضفة الغربية من النهر كان دون شك موقعاً خطراً للغاية،[17] لذلك كان خائفاً بالفعل من أن يقوم الرومان بسد الممر، فيغدو من المستحيل أن تلتحم قواته بقوات الزبير. لكن، كالعادة أضاع ثيودور فرصته في أن يحسم القتال لصالحه. أما جيش عمرو فقد تابع تقدمه باتجاه معسكر المسلمين في

هليوبوليس بكل اعتزاز بعد كل المغامرات التي قام بها.

كانت هليوبوليس إحدى أشهر المدن المصرية في الأزمنة الغابرة، وكان اسمها أون،[18] وهو اسم مألوف في الروايات الموسوية، وقد استمر متداولاً بين الأقباط حتى القرن السابع. وهو يعني أيضاً مدينة الشمس أو (هليوبوليس) في اليونانية. لم يكن هذا الاسم يوماً موضع اعتراض، فحتى العرب حافظوا عليه وغيروا اسم المكان إلى عين شمس (أي نبع أو بئر الشمس).[19] كانت أون مشهورة بروعة آثارها وفي مركزها الديني والتعليمي على حد سواء. وعندما زارها سترابو قبل ذلك بستمئة سنة، كان الناس يدلونه إلى الردهات، حيث كان أفلاطون يتعلم، رغم أن الحروب والحصارات والتغيرات التي تحدثها عوامل الزمن قد كانت هدمت وخربت معظم المعابد والتماثيل. لكن عندما جاء العرب، لم يكن قد بقي سوى القليل من عظمة الماضي وراء الجدران المنهارة وتماثيل أبي الهول التي طمر نصفها، والمسلة المنعزلة التي ما زالت منتصبة حتى اليوم كشاهد على عالم قد فنى وزال.

كانت هليوبوليس تقع على تل تحيط به أسوار هائلة ما زالت آثارها بارزة حتى الآن.[20] على الرغم من أنها لم تكن ذات أهمية عسكرية آنذاك، إلا أنها كانت تصلح للدفاع، كما كانت مزودة بالماء وصالحة كمخازن للجيش. لهذه الأسباب، حافظ عليها عمرو كمركز للقيادة، بينما كان يستعد لنزاع على وشك الوقوع.

رأينا أن ثيودور في بابل كان يجمع فرقاً من مناطق الدلتا. وعندما جمع هذا الأخير جيشاً قادراً على إخراج المسلمين من هليوبوليس، كانت على الأرجح كل التعزيزات التي أرسلها

خليفة المسلمين قد وصلت إلى عمرو، فوجد نفسه على رأس جيش من خمسة عشر ألف رجل بمن فيهم أشهر جنود الإسلام على الإطلاق.[21] أما عدد جنود الرومان، فلا يمكن سوى التكهن به، لكن تقديرهم لقوة العدو كان سليماً. في بداية الحرب، سمع قبطي يعبر عن دهشته لجرأة العرب على دخول مصر وإرسال بعض من رجالهم لمواجهة قوات هائلة من جيش الإمبراطور. ورد عليه قبطي آخر بأن العرب لا يمكنهم الاستسلام. عليهم أما أن ينتصروا أو أن يموتوا حتى آخر رجل منهم.[22] وتفيد رواية أخرى بأن الرومان ترددوا في القتال، لاعتقادهم أن فرصتهم ضئيلة في مجابهة هؤلاء الرجال الذين غزو خسرو وسيزار في سورية. إلا أن هذه الروايات هي روايات عربية، وهذه الأخيرة بالتأكيد مشكوك بصحتها. مما لا شك فيه أن الرومان كانوا يتفوقون على العرب إلى حد بعيد من حيث العدد. إذ أن عدد الجنود الذين تواجدوا في ساحة المعركة فاق العشرين ألفاً، أضف إليهم الجنود الذين كانوا يتولون حراسة الحصن.

ومن الواضح أن سياسة عمرو كانت تقضي باستدراج الجيش الروماني إلى هضبة مفتوحة بعيداً عن بابل. عندما وجد ثيودور أن قوته تسمح له بشن الهجوم، خرج باتجاه هليوبوليس بعيداً عن معسكره بستة أو أميال. كان ثيودوسيوس وأناستاسيوس على رأس سلاح الفرسان، لكن الجزء الأكبر من الجيش الروماني تألف من المشاة والنبّالة والرمّاحين. في الوقت المناسب، أبلغ الجواسيس عمراً بنوايا العدو، فوزع هذا الأخير الجيش على المواقع المناسبة. ثم توجه من هليوبوليس على رأس قوة الجيش الرئيسة لمواجهة الرومان.

لكن عمراً فصل فرقتين من جيشه تحت جناح الليل، تمركزت الأولى قريباً من أم دونين، والأخرى تحت خارجة باتجاه الشرق، على الأرجح وراء التلال،[23] قريباً من موقع برج القاهرة اليوم. وبالتالي، فقد أصبح خط الهجوم الروماني في الوسط بين المجموعتين التي فصلتا عن قوة الجيش الرئيسية. وقد أعطيت الأوامر لهاتين الفرقتين بالانقضاض على جناحي جيش العدو وعلى مؤخرته متى سنحت لهما الفرصة.[24]

كان الوقت مبكراً عندما خرجت القوات الرومانية من بين البساتين والأديرة التي كانت تغطي الأراضي الواقعة شمال شرق الحصن وانتشرت في الخلاء.[25] كانوا يجهلون تماماً حيلة عمرو، لكنهم كانوا يعرفون أن الجيش الأساسي يتقدم من هليوبوليس باتجاههم. حصل الاشتباك على الأرجح في منتصف الطريق بين المعسكرين في مكان ما من منطقة تدعى اليوم العباسية. كان الطرفان يدركان أن مصير مصر سيتقرر في ساحة هذه المعركة.

قاتل الفريقان ببسالة. وبينما القتال على أشده، خرجت الكتيبة العربية التي يقودها خارجة من خلف التلال، وانقضت كالعاصفة على مؤخرة الجيش الروماني. عندئذ وقع الجيش الروماني بين قوتين، فدبت الفوضى في صفوفه، ولما حاول التوجه يساراً باتجاه أم دونين، تصدى له على ما يبدو جيش عربي ثالث وهاجمه. حاول الرومان الفرار بشكل عشوائي، وجاهدوا للإفلات من السيوف العربية المعقوفة فانقلبت الفوضى إلى كارثة.

نجح القليل منهم في العودة إلى الحصن عن طريق البر،

لكن الكثير منهم، احتشد عند النهر ثم استولوا على قوارب وتوجهوا نحو بابل، إلا أن أعداداً كبيرة قضت في الطريق.

انتصر العرب واستولوا مرة أخرى على أم دونين التي لم يمت من حراسها الرومان أثناء المجابهات سوى ثلاثمئة رجل. أما الذين نجوا، فقد انسحبوا إلى داخل حصن بابل، ثم أوصدوا البوابات. إلا أنهم بعد أن سمعوا عن أنباء المجزرة الرهيبة التي تعرض لها الرومان، انهارت معنوياتهم وفروا بالزوارق إلى نيقوس.

أما الروايات عن حجم الخسائر، فإننا لم نجد أي ذكر لها حتى في الآثار المكتوبة. لكننا على يقين من أن ثيودور، القائد العام، والحاكمين ثيودوسيوس وأناستاسيوس لم يكونوا في عداد القتلى. كما أن عدداً لا بأس به من الفرق الرومانية تركت لتشكل حامية فعالة مع الجنود الذين كانوا يسيطرون على القلعة أثناء المعارك. لكن انتصار العرب قدّم لهم منافع كثيرة؛ فبلدة مصر، التي كانت حتى ذلك الحين في حماية الجيش الروماني المتمركز في بابل، أصبحت الآن تحت رحمة العرب وتم الاستيلاء عليها من دون معارك إضافية،[26] مما جعل العرب أسياد كل الضفة التي تمتد من أعلى الحصن إلى أسفله. لذلك، نقلوا معسكرهم من هليوبوليس وأقاموه بالقرب من الحصن عند الجهة الشمالية والشرقية في منطقة البساتين والكنائس، أي المنطقة التي عرفت لاحقاً في التاريخ الإسلامي بالفسطاط. كانت قواتهم كافية الآن لمحاصرة الحصن ولاتخاذ التدابير اللازمة من أجل الاستيلاء عليه، خاصةً وأنه كان قد قضي على الجيش الروماني كقوة مقاتلة، أما من تبقى منه ومن استطاع الفرار والإفلات، فإما قتل داخل

أسوار الحصن، أو اختفى مسعوراً في دلتا النيل. فضلاً عن ذلك، فإن أخبار النصر العربي حررت على الفور مدينة الفيوم من القوات الرومانية المدافعة عنها، إذ أن دومنتيانوس، ولدى معرفته بنتائج المعارك، أجلى قواته عن المدينة خلال الليل، وأرسل الحامية إلى أبويط حيث ركبوا القوارب بسرعة وتوجهوا نزولاً إلى نيقوس دون أن يعلموا سكان أبويط أنهم تركوا الفيوم للأعداء. ما إن علم عمرو بهروب دومنتيانوس، حتى أرسل على الفور فرقاً ركبت النيل إلى الفيوم وأبويط واستولت عليهما وسط مجازر لم تعرف الرحمة. وأصبح، بالتالي، الإقليم بكامله تحت سيطرة المسلمين.

عندما أخمدت آخر بؤر المقاومة في الفيوم، وجه عمرو جيشه إليها وبالتحديد إلى بلدة دلاس،[27] أفضل مكان للانطلاق. كانت السيطرة على النهر قد انتقلت بشكل مؤقت إلى المنتصرين (ولم يكن ذلك أقل نتائج المعركة أهمية). كان الرومان لا يزالون يسيطرون على جزيرة الروضة المحصنة المتصلة بشكل وثيق مع حصن بابل، كما أبقوا هذين الموقعين على اتصال عن طريق القوارب. بما أن الملاحة في النهر استمرت لفترة مفتوحة نوعاً ما لأن العرب لم يكونوا بحارين، وقد اهتموا أكثر بالغزوات البرية، إلى أن استدعى عمرو مختلف فرق الفرسان[28] التي كانت قد جالت في البلاد بعد معركة هليوبوليس وأمر أبا كيروس الدلسي[29] بتزويد الجيش الإسلامي بزوارق لنقل القوات في الفيوم من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية. كان ينوي إخضاع كل إقليم مصر، والذي كان يمتد حتى رأس الدلتا. لقد حصلت معركة هليوبوليس على الأرجح منتصف شهر تموز عام (640 م). لم

يستغرق الاستيلاء على الفيوم سوى أسبوعين، وبالتالي، فقد بدأت الحملة على الدلتا في أول شهر آب/أغسطس لأن عمرو أراد أن يبدأ القتال قبل أن يرتفع مستوى النيل ويصبح القتال مستحيلاً.

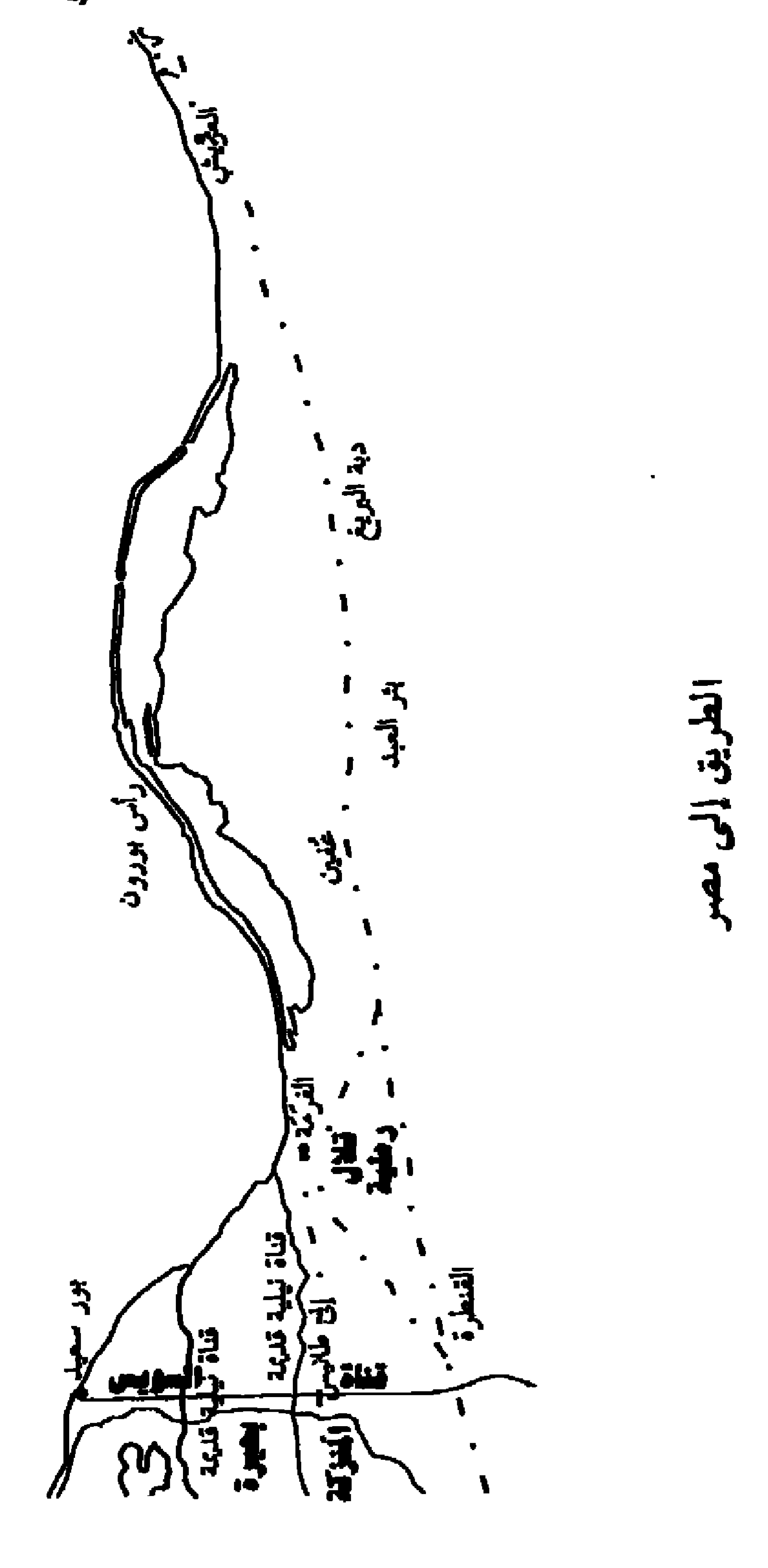
عند الاستيلاء على بلدة مصر، تم أسر جورج، حاكم الإقليم، والاحتمال الآخر هو أن يكون هذا الأخير قد أعلن استسلامه. في الواقع، أن الذعر الذي كان يحدثه اسم "عرب" جعل البلد بأكملها تخضع لسيوفهم باستثناء الأماكن المحصنة.

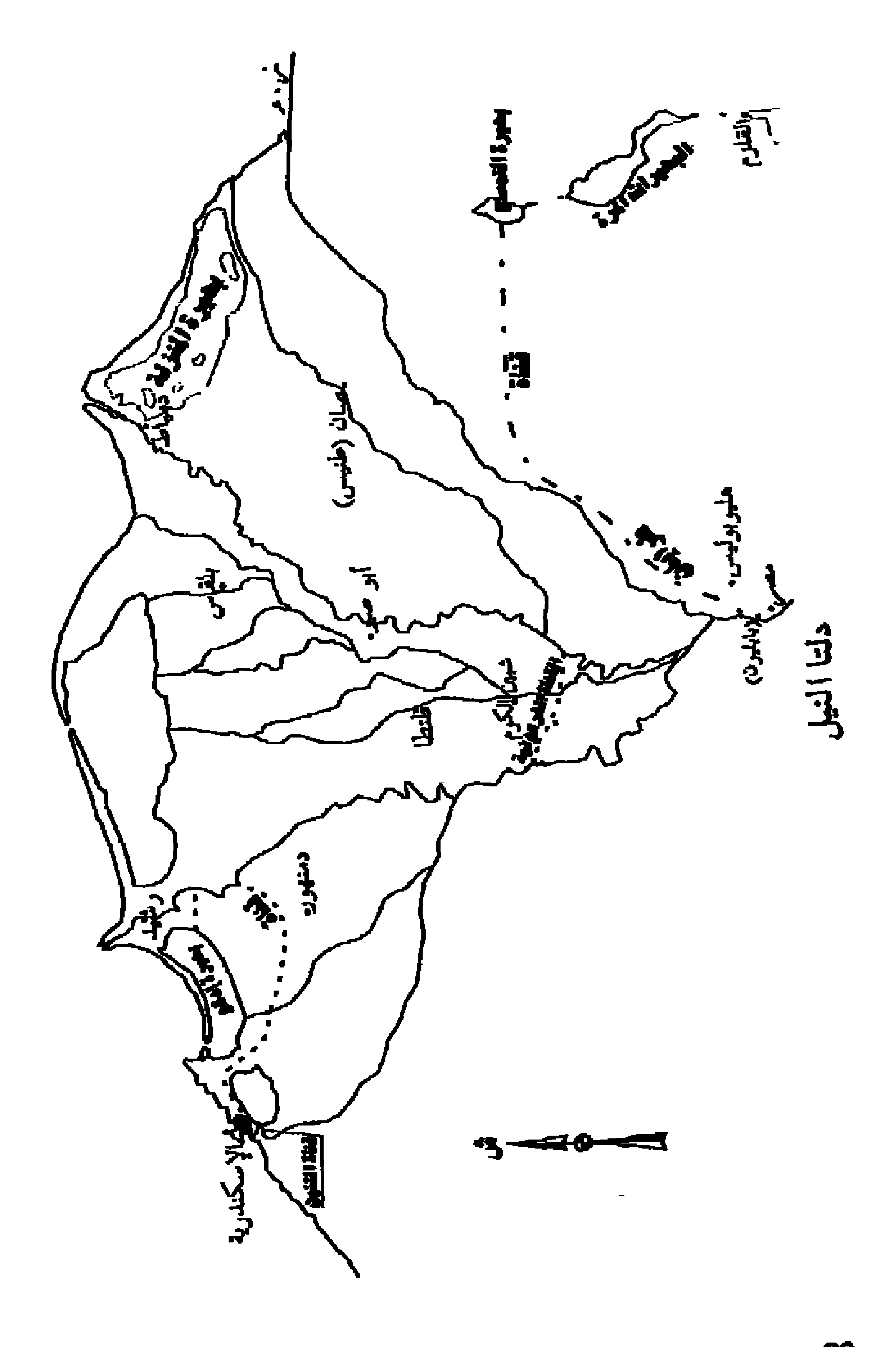
كانت تمتد في أرجاء الدلتا قنوات الماء، وبعضها لم يكن من الممكن اجتيازه، فأمر جورج على الفور ببناء جسر فوق القناة في قليوب، ويقول جون أوف نيقيوس أن الناس بدءوا يساعدون المسلمين.[30] للأسف أن لغة الأسقف لم تكن أكثر وضوحاً. لكن، استناداً إلى السياق العام وإلى النصوص اللاحقة، لم تفدنا هذه الملاحظة بشيء سوى أن هذه الخدمات كانت قد طلبت من السكان. بعبارة أخرى، لم يقدم عليها الناس طوعاً بل أجبروا على القيام بها. في الحقيقة، أن هذا المقطع بالذات يوضح المعنى، فقد دون الكاتب أن العرب استولوا على بلدات أتريب ومنف المهمتين، بالإضافة إلى الأراضي التابعة لهما، وأخضعوا إقليم مصر كله، ثم أضاف أن عمرو لم يكتف بذلك بل أوقف القضاة الرومان وقيد أيديهم وأرجلهم بالسلاسل أو بجذوع الأشجار، كما استولى على كميات كبيرة من المال، وفرض على الفلاحين ضريبة مزدوجة، وأجبرهم على تأمين العلف لخيوله. بالإضافة إلى ذلك، ارتكب أعمال عنف لا تحصى عدداً. ليس مستغرباً أن تكون كل هذه التدابير قد سحقت المقاومة وجعلت الناس

ينصاعون لرغبات الفاتح الجديد. وحتى هذه النقطة، لم ترد كلمة واحدة تشير إلى أن مجموعة ما من المصريين نظرت إلى مجيء المسلمين بإحساس آخر غير الرعب.

رغم أن أتريب ومنف قد سقطتا، إلا أن نيقوس، الواقعة عند الضفة الغربية من النيل، كانت محصنة تحصيناً منيعاً يجعل الاستيلاء عليها أمراً مستحيلاً دون اللجوء إلى حصار منظم، لم يكن يسمح به آنذاك ضيق الوقت وعدم توافر الوسائل الضرورية. فظلت نيقوس صلة وصل بين بابل والإسكندرية. لكن مجرد أي تقرير عن انتصارات المسلمين كان كافياً لجعل القادة الرومان ينسحبون من العاصمة؛ فغادروها تاركين دومنتيانوس على رأس حامية صغيرة وأرسلوا الأوامر إلى دارس في سمنود للدفاع عن البلاد في المنطقة التي يتفرع فيها النيل إلى نهرين. لكن هذا التحذير أحدث ذعراً انتشر في كل البلدات المصرية، فما كان من السكان، في أرجاء البلاد كافة، إلا أن توجهوا إلى الإسكندرية تاركين وراءهم الأراضي والبيوت والأرزاق والممتلكات والماشية والغلال. بالنسبة إلى السكان الذين عانوا طوال عشر سنوات من الاضطهاد خلا حكم سيروس المقوقس فقد بدأ عهد جديد من الإرهاب.

لكن عمراً لم يكن مستعداً لتعقب المجموعات التي هربت نحو الشمال. فمع انتهاء شهر آب/أغسطس، بدأ مستوى النيل يرتفع بسرعة، وأصبح من الاستحالة اجتياز البلاد. إضافة إلى ذلك لم يكن عمرو يريد أن يترك خلفه حصن بابل المنيع من دون حماية، بينما يتطلب ذلك كل الفرق التي كانت معه، مما لا يترك له جيشاً قادراً على غزو الإسكندرية. وهكذا، فإن خطوته التالية سوف تكون إزالة حصن بابل.


الطريق الى مصر
العريش
القنطرة
السويس


دلتا النيل
الإسكندرية
رشيد
دمنهور
طنطا
هليوبوليس
منف

هوامش: ‹معركة هليوبوليس›

* الفصل السادس عشر من الكتاب الآتي:

Alfred J. Butler, The Arab Conquest of Egypt and the Last Thirty Years of the Roman Dominion. Oxford, 1902.

1- Tundunias.

2) لقد أتى ابن الفقيه في القرن العاشر على ذكر آثار مدينة ممفيس، وقد سمع من رجل عجوز عن قصر عظيم مؤلف من حجر واحد. لكنّه علق باستغراب قائلاً إن لممفيس، مدينة الفراعنة، سبعون بوابة وأن أسوارها من الحديد والنحاس (Bibl. Geog. Arab. Part vi. pp 58 and 73.) وقل اليعقوبي، الذي سبق ابن الفقيه أن مدينة ممفيس في طور الانهيار. كانت البلدة الواقعة في المنطقة المحيطة بقصر الشمع مستوطنة فرعونية دون شك، إذ تم العثور هناك على آثار فرعونية هي عبارة عن تمثال شهير نصب بالقرب من البوابة الجنوبية في للقلعة وحجارة نقش عليها بالهيروغليفية وجدت في أسوار القلعة. كانت هذه البلدة تدعى ‹مصر› و‹منف› استعملتا بشكل متبادل للدلالة على المكان نفسه. فقال عبد اللطيف بالتالي إنه وجدت آثار في مصر القديمة وهذه المدينة هي قرب الجيزة بعد الفسطاط وهي المدينة التي قطن فيها الفراعنة والتي كانت مقر الحكومة الملكية (ed. J. White, p. 117.). يبدو أن كلمة ‹مصر› كان لها وقع خاص، لذلك استعمل ابن خلكان كلمة المصرَين (أي البلدتين) للدلالة على الكوفة والبصرة (ed Slane, ed. vol. iv. p.204.) لكن القاعدة العامة في مصر قضت بأن تلك الكلمة على البلدة الواقعة عند الضفة الشرقية للنيل بالقرب من بابليون.

3- Domentiaus

4- Theodosius

5- Anastasius

6) يَعتبر تستنبرغ (Zotenberg, p. 554, n. 1) أن جون هذا هو نفسه جون دوق برقة (Braca) أو برقينا (Barcaina) الذي ذكر هنيكوفوروس (Nicephorus). لكني برهنت أن رواية الأخير حول الغزو لايمكن أبداً الوثوق بها. ومع ذلك،

يبقى جون رجلاً مهماً وكل ما لدينا يدفعنا للاعتقاد بأن هرقل فوضه مباشرةً لأن لا مجال للشك بأنه هو (قائد الميليشيا – General of militia) الذي أتى بإكثسس (Ectheis) الشهير من سرغيوس (Sergius) إلى قورش (Cyrus) وأنهَ وإكثسس نقلا الصليب الذي أشار إليه جون النيقيوي (Jhon of Nikiou). أنظر (Supra, p. 182).

7– John of Mârôs

8) لمزيد من المعلومات حول هذا المكان يمكنك العودة إلى مؤلف: Fayûm› Towns and their Papyri, p. 13 and pl. xviii› من تأليف كل من الدكتور غرنفل (Grenfell) والدكتور هنْتْ (Hunt) الصفحات (13 و xviii). واللاحون وجد عند بحر يوسف، على بعد عشرة أميال من مدينة الفيوم وكان يسد مدخل الوادي قاسماً بذلك سلاسل الجبال التي تحيط بمقاطعة أرسينويط (Arsinoite). وشكل هذا الموقع نقطة استراتيجية غاية في الأهمية من أجل الدفاع عن المقاطعة. أنظر أيضاً في ‹المسعودي 385–6›.

9) ‹جون النيقيوي 555›. يجب أن تصدق قصة هذه المجزرة فذلك يتعرض وقانون الحرب في تلك الأيام وستمر أمامنا حالات أخرى مشابهة. بالطبع، إن بهنسا المشار إليها هنا هي تلك الموجودة في مقاطعة الفيوم وليست بهنسا التي عرفت قديماً باسم أوكسرينخس (Oxrhynchus). هذه الأخيرة هي أبعد من بهنسا الفيوم بخمسين ميلاً نحو الجنوب. أنظر:
‹Amélineau, Géog. Copte, p. 92›.

10) لسنا متأكدين من موقع أبويط. تستنبرغ يعتبر أنه المكان الذي يحمل هذا الاسم والواقع في مقاطعة (ليكوبولس Lycopolis) أو أسيوط، لكن هذا مستحيل قطعاً لأن المكان الذي يشير إليه هو أبعد من بهنسا بكثير لجهة الجنوب. أما Amélineau (Géog. Copte, p. 3) فيبين أن أبويط اسم مكان كان يطلق على مكانين، والمقصود هنا هو لا شك ذلك الذي يقع اليوم في مديرية بني سويف بالقرب من (بصير كريدس Kûridus Bûsir) وتحديداً شرق حجر اللحون.

11) هذه ترجمة تستنبرغ لـ (le chef des partisans). لكن الدكتور شارلز يترجمها إلى (زعيم قطاع الطرق) ويعني بهم دون شك اللصوص الذين سكنوا الصحراء.

12) هذا دليل آخر على أن الإمبراطور فوض جون بشكل مباشر. من الواضح أن

ثيودور اعتمد على مهارات جون العسكرية فتأثر بموته إلى حد بعيد. أما بالنسبة إلى الدليل المباشر على أن جون هو الذي حمل إكثسس الشهير إلى مصر وحمل معه الصليب المقدس العظيم المقدم من الإمبراطور فقد سبق وأتينا على ذكره (p. 128, I. n).

13- Tendons.

14) لقد بينت المقالة (The Chronology of the Arab Conquest) التي كتبتها أن المتوارث القبطي يجمع بين التاريخ وبين ظهور العرب في مصر، وأنه لا يمكن أن ينطبق ذلك على وصول عمرو للمرة الأولى إلى مصر، لكن، قد يتوافق هذا التاريخ مع وصول قوات الدعم.

15) تختلف السلطات حول الرقم. يقول ابن عبد الحكم أن العدد وصل إلى أربعة آلاف، وبحسب البلاذري، فإنه تراوح بين عشرة آلاف واثني عشر ألفاً ؛ أما ياقوت فيحدده باثني عشر ألفاً. ومن جهته، نقل المقريزي عن الكندي قول يزيد بأن عديد قوات عمرو كان خمسة عشر ألفاً وخمسمئة مقاتل، أي أن القوة الأساسية تألفت من ثلاثة آلاف وخمسمئة مقاتل، أضيف إليها اثنا عشر ألفاً آخرون. بينما يؤكد السيوطي أن اثني عشر ألف مقاتل أتوا إلى مصر في عدة مجموعات (وقد لاحظ هذه النظرية أيضاً المقريزي) وجاء على ذكر مجموعة واحدة منها كانت في قيادة الزبير وتألفت من أربعة آلاف رجل. هذا يفسر لماذا زعم بعض الكتاب العرب بأن العدد الإجمالي لقوات الدعم بلغ فقط أربعة آلاف رجل. من الملفت للنظر أن جون النيقيوي ذكر الرقم نفسه أي أربعة آلاف وأضاف أن قائدهم كان يدعى (ولوارايا – Walwârya) وهو بربري أو أسود. إلا أنه تعذر علينا التعرف على هذا الاسم ولكن قائد إحدى الفرق العسكرية كان أسوداً بالفعل ويدعى عبادة. وقد لاحظ تستنبرغ أن ولوارايا هو تغيير جذري واضح لاسم عبادة. وفقاً لياقوت فإن كلاً من عبادة بن الصامت والمقداد بن الأسود ومسلمة بن مخلد كان على رأس ألف رجل وينطبق الأمر نفسه على الزبير.

ليس من التباس إلا ووقع بين المؤرخين العرب، لذلك ليس من المستغرب أن يكون المقريزي قد أرجأ وصول الدعم (أي القوة التي بقيادة الزبير وعددها اثنا عشر ألف رجل) حتى الوقت الذي بوشر فيه حصار بابليون.

16- Trajan.

17) إن نص جون في الفصل (112: 556) هو في غير مكانه إطلاقاً. فالجملة التالية تنطبق على بداية الحملة على الفيوم (1. 2, ' Laissant de côté les villes fortifiées ils s'étaient dirigés vers une localité nommée Tendounyas et s'étaient embarqués sur le fleuve') (أي: تركوا جانباً المدن المحصنة وتوجهوا في النهر إلى منطقة تدعى Tendonyas). والجملة التي تليها تتعلق بالاستيلاء على مصر البلدة، والجملة التي تليها تتحدث عن العودة من الفيوم. لذلك فإن إعادة بناء النص أمر ضروري للغاية. لكن قلق عمرو حيال موقفه ورد بوضوح.

18) لشامبليون الشاب (Champollion le Jeune) كتابات مهمة حول هذا المكان وردت في مؤلف (مصر تحت حكم الفراعنة - L'Egypte sous les Pharaons, t. ii. Pp. 36-41).

19) يبدو أن الاسم الحديث: المطرية، قد طغى على اسم عين شمس. ويعرف كل المسافرين نحو شجرة العذراء والنبع الذي ترقد قربه العائلة المقدسة هذا المكان جيداً.

20) رغم أنه يسهل التعرف على أون وهليوبوليس، إلا أن الخريطة الجديدة "للمكتب الحربي" تعتبر أن أون هي تل اليهودية، وهليوبوليس تكون تل الحسن. تقع آثار تل اليهودية على مرتفع يطوقه سور من الطوب غير متقن البناء، أما على تل حسن، فلا يزال عند الجهة الجنوبية بعض الآثار وهي عبارة عن سور يبلغ ارتفاعه عشرون قدماً. لا شك في أن عمرو قد خيم في هذا المكان لأن تل اليهودية يبعد عنه اثني عشر ميلاً شمالاً. لقد ارتفع مستوى البلاد بأكملها عدة أقدام مقارنة بالقرن السابع. والدليل على ذلك، عمق المسلة في الأرض، وعمق الآثار الأخرى الممتدة تحت السهل الصحراوي.

21) وفقاً لأبو المحاسن فإن ابن عبد الحكم قدم لائحة بأسماء القادة من الصحابة وبأسماء الأنصار الذين شاركوا في الفتح. أولاً، إن الصحابة الذين شهدوا فتح مصر هم: عمرو وابنه عبد الله، الزبير، عبد الله ابن الخليفة عمر، سعد بن أبي وقاص (وقد اختلف في أمره) خارجة بن حذيفة، قيس بن أبي العاص، نافع بن عبد القيس الفهري، أبو رافع مولى رسول الله، ابن عبيدة، عبد الرحمن وربيعة ابنا شرحبيل بن حسنة، ووردان مولى عمرو بن العاص. ثانياً، شهد فتح مصر من الأنصار: عبادة بن الصامت، محمد بن مسلمة، أبو أيوب

خالد بن يزيد، أبو الدرداء عويمر بن عامر، ويقل أيضاً عويمر بن يزيد. ويذكر الكاتب أسماء أخرى أقل بروزاً: أنظر كتاب: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،

ed Juynboll et Matthes (Lugd. Bat.1885-61), vol. I. P 22.

22) أبو المحاسن ص 8.

23) على الأرجح أن المقريزي ربط هذا الحادث بشكل خاطئ مع الوقائع عندما قال إن عمرو أرسل خمسمئة فارس بقيادة خارجة ليختبئوا ثم يخرجوا من بين الأديرة وينقضوا على العدو. وقال تحديداً: «انطلقوا ليلاً ليدخلوا مغاور بني وائل قبل الصباح». عند الفجر، عندما بدأت المعركة، فاجئوا الرومان وانقضوا عليهم من الخلف وأجهزوا عليهم.

24) يجد تستنبرغ صعوبة في فهم المعركة نظراً إلى المسافة التي تفصل الأماكن المذكورة. فهو قد أخطأ عندما وضع (أم دونين - Tendons) إلى الجنوب من بابليون بدلاً من الشمال. أما جون النيقيوي فلم يكن لديه أدنى شك عندما وضعها نحو الشمال الغربي لذلك سمى النقطة المقابلة شمال بابليون. بالتالي، فبصرف النظر عن اعتراضات أخرى، بدت خطة عمرو المتعلقة بالمعركة منافية للعقل باعتبار أنه وضع مجموعة من جيشه جنوب بابليون وأخرى شمالها وجمع الجيش الأساسي في هليوبوليس. إضافة إلى ذلك، فإن قلعة الرومان ومخيمهم كانا يقطعان طريق الجنوب. لنفترض أن عمرو تقدم ليلاقي الجيش الروماني ولم ينتظر في مقره، بالتالي لا يعود لمشكلة المسافة أي وجود. فضلاً عن ذلك، فإن تستنبرغ نسي أن النيل كان يجري أكثر باتجاه الشرق مما هو عليه اليوم. فإذا وضعنا فرقة عربية قرب الأزبكية (أم دونين) وأخرى قرب القلعة أو الجبل الأحمر، سيصبح سير المعركة واضحاً بما فيه الكفاية. أضف إلى ذلك ملاحظة أخرى: إن هليوبوليس القديمة كانت تمتد على مساحة تفوق تلك التي في مخيلتنا. ولا تؤكد هذا فقط البقايا التي اكتشفت بل أيضاً إفادة ابن دقماق الواضحة التي جاء فيها: «إن مدينة عين شمس في العصور القديمة كانت مترامية الأطراف وملاصقة للمصر القديمة عند المكان المعروف بالفسطاط اليوم - 43 .pt. v. p». هذا يعني، حسب تصوري، أنه لم يكن هناك فاصل يذكر بين أطراف هاتين البلدتين رغم أن هذه الأطراف كانت عبارة عن كنائس

ومنازل متفرقة.

25) تبدو روايتي مختلفة تماماً عما رواه الطبري .ed Zotenberg, vol. p. iii) (463 لأن الطبري يزعم: أولاً، بأن المعركة حصلت بعد الاستيلاء على بابليون، ثانياً، بأن المقوقس ومعه الجيش القبطي قد كانوا استولوا على عين شمس وفي نيتهم السير إلى مصر، ثالثاً، بأن جيش عمرو تقدم حتى وصل إلى بوابات عين شمس نفسها، رابعاً، بأن الجيش القبطي هزم عند المواجهة الأولى وخسر عدداً كبيراً من جنوده بين قتلى وأسرى، وخامساً، بأن الغنائم كانت كبيرة وبأن السجناء أرسلوا إلى المدينة. قد تبدو مغالين إذا رفضنا مثل هذه الرواية التي تؤكده وإن من غير أدلة كل ما ورد فيها، لكن بغض النظر عن ضرورة تفضيل أدلة جون النيقيوي المعاصرة بعض الشيء للأحداث، لا شك في أن الرواية صحيحة، لكن المعركة التي تحدث عنها ليست معركة عين شمس. يمكن إثبات ذلك من خلال: أولاً، ترتيب الأحداث؛ من غير المعقول أن تكون هذه المعركة قد جرت بعد الاستيلاء على مصر (البلدة) بينما الأمر معاكس بالنسبة إلى المعارك الأخرى، التي جرت بالفعل بعد ذلك. ثانياً، إن الطبري عرف في الواقع بهفوته عندما وصف عين شمس بأنها «بلدة مهمة في بلاد القبط، تقع باتجاه الغرب». هذا يعني أن البلدة تقع إما غرب النيل أو غرب الدلتا، ولا يمكن أن نصف عين شمس على أنها في أي من الموقعين. لكن الإشارة هنا هي ربما لإحدى المعارك التي جرت بين بابليون والإسكندرية لأن هذه المعارك وقعت في الجهة الغربية.

لقد أسفر خطأ الطبري (الذي كان غريباً عن مصر وبالتالي غير مطلع بما فيه الكفاية على جغرافيتها) وهذا مثال آخر على الالتباس والحيرة اللذين يواجههما مؤرخو هذه الحقبة حتى في أفضل المصادر مما يحتم عليهم استقصاء الحقائق من خلال جهد متأن في النقد والمقارنة. لكني أعتقد أنه يوجد تفسير بسيط ومؤكد لهذا الالتباس الذي يعود ويظهر عند كتاب عرب آخرين. فعندما يقول ابن الأثير إن القادة العرب حاصروا عين شمس، وعندما يقول أن الزبير صعد إلى سور عين شمس، نجد أنفسنا أمام الالتباس نفسه (فكما سنرى، إن الزبير صعد في الحقيقة إلى سور قصر الشمع). وأساس هذا الالتباس هو اسم بابليون الذي يعتقد العرب، أو بعض منهم، أنه يعني باب الأون أي باب (أون) أو باب

هليوبوليس. وهليوبوليس في العربية هي عين شمس. بالتالي يجري خلط بين المكانين فمع أن البلاذري يقول بوضوح إن الفسطاط عند الفتح كانت تدعى (أيون/ عيون) إلا أن الكتاب الذين جاءوا بعده قرءوها (أيون/ عيون). وهكذا أخذت معنى (أون) أي عين شمس. بطبيعة الحال فما كتب عن حصار عين شمس مبني على أساس هذا الخطأ والأحداث التي نسبت إليه إنما هي أحداث بابليون.

أعتقد أن هذا الحل لم يطرح في السابق، لكنه يشرح الصعوبات الكثيرة عند الكتاب العرب. فعبارات (باب اليون/ العون) ومدينة ليون، وقصر اليون وباب اللوق، واللون وأيون، كلها تعبر بطرق مختلفة عن اللفظ حول الكلمة الرومانية ببليون.

26) ورد في عنوان الفصل (125) تأريخات جون «كيف استولى المسلمون على مصر (البلدة) في السنة الرابعة عشر من التقويم القمري»، لكن لم يرد ذكر لأي استيلاء في النص. لكن، لا يمكن الاعتماد سوى على دليل واحد من بين المئات في نص مفكك ينقصه الكثير من الدقة.

27) إن بلدة (دلاس Dalâs) هي في القبطية (تلُج – Tiloj) وفي اليونانية (نيلوبوليس: مدينة النيل – Nilopolis) وهي تقع عند الضفة الغربية من النهر، جنوب ممفيس، وشرق مدينة الفيوم. أنظر Amélineau, Géog. Copie, p. 136

28) قال ابن عبد الحكم (كما نقل عنه السيوطي) إنه بعد الانتهاء من فتح مصر (البلدة) أرسل عمرو فرقاً من الخيالة إلى البلدات والقرى المجاورة لها. ويقول جون النيقيوي في الموضوع نفسه إن عمرو كان يجمع حوله كل الفرق كي يقوم بالعديد من الحملات (نلاحظ هنا توافق واضح بين الاثنين).

29) هذه هي (أباكيري (Apa Cyrus Dalas: Abâkîrî)) حسب ما جاء عند جون النيقيوي في الصفحة (559). وقد احتار تستنبرغ في أمر هذه الكلمة فكان تعليقه: «من المؤكد أنها ليست اسم علم». لكن الوثائق التي وردت في كتاب ‹Papyrus Erzherzog Rainer: Führer durch die Ausstellung› من تأليف (كربتشك – Karabacek) لا تترك أي مجال للشك. فالوثيقة رقم (551 p .230 supra) هي رسالة من خارجة المشهور إلى هرقليوبوليس (Aba Cyrus, pagarch of Heracleopolis Magna) والوثيقة رقم (558) التي كتبت بالعربية واليونانية بتاريخ 25 نيسان (643 م) هي من عبد الله بن جابر إلى (كرستفوفوروس

Christophorus و ثيودوراكيوس Theodorakius) ابني (Aba Cyrus) نفسه. هذه الوثيقة هي أول وثيقة إسلامية في مصر، وربما في العالم. أما الوثيقة رقم (554) فتعيد ذكر الأسماء نفسها.

(30 انظر الفصل 113/ 559). إن ترجمة تستتبرغ القول:

« 'C'est alors que l'on commença à prêter aide aux musulmans' » إلى «أي عندئذ بدأ الناس بمساعدة المسلمين» تذهب إلى أبعد من الجملة الأساسية التي تقول: «وبدءوا بمساعدة المسلمين». أعتقد أن المساعدة كانت من أجل هدف محدد وليست بهدف المساعدة بشكل عام.

تطورات فنون الحرب الإسلامية:

الفتوحات الأولى*

منذ نشوء طرق التأريخ الحديثة، حاول الباحثون شرح لغز الفتح العربي الذي حصل في أوائل القرون الوسطى. يمكن تلخيص المعضلة في السؤال الآتي: كيف حدث أن النظام الإسلامي في جزيرة العرب وبالرغم من محدودية الطاقة البشرية ومصادر أخرى عديدة قام بغزو الإمبراطورية الساسانية واستولى بالقوة على عدة أقاليم بيزنطية في غضون جيل واحد؟ اقترح الباحثون عدة نظريات لتفسير هذا الإنجاز. لقد مال هؤلاء للتركيز على عامل أو عدة عوامل كان لها دور في إضعاف الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية كالعامل الإلهامي والتوحيدي للدين، والضغوطات الاقتصادية، وعوامل تشجيع الهجرة العربية، بالإضافة إلى المشاكل السياسية والاقتصادية.[1] لكن، كل هذه التفسيرات غير وافية لأنها أخفقت في تفسير الانتصار العسكري بلغة العلوم العسكرية.

طرح ماريوس كُنراد[2] مسألة العامل العسكري، لكن نتائج تحقيقه كانت مخيبة للآمال. فهو لم يحاول إعادة بناء الحملات الكبرى، لكنه استنتج من العموميات أنه لم يكن للعرب أي أفضلية، لا من حيث العدد، ولا من حيث التسليح، أو التنظيم، أو التكتيك الحربي أو الانضباط. لذلك، فقد بحث كنراد عن

أسباب أخرى لانتصارهم العسكري واختار أسباباً مشابهة للأسباب الثلاثة المذكورة أعلاه، إلا أنه أسقط العامل الاقتصادي، والسعي وراء الغنائم وأضاف «عامل الشجاعة»[3]. وفي عمل أكثر حداثة، جمع فْرِد دُنّر كميات كبيرة من مواد المصادر المتعلقة بفن الحرب كما مارستها الجيوش الإسلامية الأولى.[4] لكن تحليله افتقر إلى تقويم الفنون العسكرية. بالتالي فإن استنتاجه ليس بالضرورة التفسير الأفضل للوقائع.

يبدو أن كلاً من كُنراد و دُنّر تأثر بالنظرة الغربية السائدة عن الفتح العربي؛ بعبارة أخرى، اعتقدا أن تحقيق الانتصارات يعود بشكل رئيس إلى القدرات القتالية للمحارب البدوي.[5] ويمكن اقتفاء هذا المعتقد في كل من التواريخ الشعبية أو العلمية التي تعود إلى القرن الثامن عشر، فهو يظهر مثلاً في أعمال حتّي وبكَر وكايتاني ومُوْير وغبّون وغابريلي. إن استمرار هذه النظرة خلقت أسطورة المحارب البدوي، وظلت براعة البدوي العسكرية افتراضاً أساسية في نظريات حركات الغزو. من المستغرب أنه نادراً ما شكك بذلك، رغم الإقرار العام بأن البدو كانوا بالكاد قادرين على الوقوف في وجه الجيوش البيزنطية النظامية والساسانية الفارسية.[6] لم يشكك جون بَغوت غلوب بهذا الأمر مع أنه كان يعرف تماماً حدود المقاتلين البداة: «إن البدوي مليء بالجسارة، والحيوية، وروح المبادرة. كل رجل كان مستعداً ومتحمساً ليقاتل بمفرده. لم يكن البدو قادرين على التقدم المنضبط ضمن الأرتال، بينما كانوا في أحسن حالاتهم في هجوم جامح يقاتل كل رجل فيه لنفسه».[7] مع ذلك، يمكن قول المزيد حول جدارة البدو كمقاتلين.

كان البدوي العربي، رغم تعوده على الحرمان، يفتقر ليس للانضباط فقط، بل أيضاً للقدرة على التحمّل؛ فهو غير متمرس على التحمل في الأعمال الجسدية والالتزامات طويلة الأمد. وبالتالي، فإن البداة، مقارنة بالحضر، ليسوا بالضرورة مقاتلين متفوقين. قبل العصور الحديثة، تفوق البدو من حيث سرعة التنقل، كما تمتعوا بعامل المفاجأة. وكان بمقدورهم أن يستغلوا بسرعة وضع العدو في حال تشتته، أو ضعف تسليحه، أو عدم جاهزيته للمقاومة. لكن، يبقى من الصعب إيجاد أي دليل على أن قوة من البدو استطاعت أن تهزم يوماً قوة من الجنود المحترفين توازيهم عدداً.

قبل الإسلام، قاتلت فرق عسكرية من البدو في إمرة القادة الغسانيين أو اللخميين في حروب عديدة جرت بين البيزنطيين والفرس. لكن، بحكم أن معظمهم كان من الخيالة الخفيفة، فقد قاموا عادة بمهمات الاستطلاع، وتزويد الخيل بالعلف، والغزو، والقرصنة ومضايقة الأعداء المهزومين. لم يكونوا قوات صدام، وأثبتوا أنه لا يعتمد عليهم في المعارك المنظمة. كانت قوات الغساسنة واللخميين متوازية تماماً عند المواجهة، لكن أياً منها لم تكن تستطيع القيام بعمليات منفردة ضد الجيوش الميدانية للقوتين الكبيرتين. عدا عن هذه الفرق الحليفة، خدم كثير من العرب في التشكيلات القائمة للجيش الروماني في الشرق؛ ويبدو أنهم عند التدريب والتسليح المناسب كانوا يضاهون أي جندي آخر. هكذا، نستنتج أن قوات البدو افتقرت للثبات في المعارك بما أنها بقيت قبائل مسلحة ليس إلا. بالتالي، يستحيل أن يكون خيالة من البداة غير النظاميين قد شكلوا عماد الخط القتالي

الإسلامي. وفي الواقع، فإن أول معركتين حاسمتين في الفتوحات (اليرموك في سورية والقادسية في العراق) كسبتا من خلال الاستخدام البارع للمشاة في أدوار دفاعية.

ولأن رأي في إعادة بناء معركة اليرموك سبق وأن نُشر في مكان آخر[8] فلن أذكر هنا سوى بعض الوقائع المهمة منها أن الانتصار قد نتج عن صمود مشاة العرب بوجه الفرسان البيزنطيين، إذ تم تطويقهم ثم دفعوا من ساحة المعركة. واستطاع رجال المشاة العرب أن يقفوا بثبات لأنهم اتبعوا تكتيكاً جديداً وعبقرياً. فقد دافعوا من داخل أطواق شكلوها من جمال مقيدة ببعضها إلى بعض. كانت المعركة شاهداً على النبوغ التكتيكي لخالد بن الوليد. ولدى المقارنة، نجد أن العامل الأهم في حسم القتال بالقادسية كان في الواقع الوضعية والتسليح، وليس التكتيك.

وعلى نقيض معركة اليرموك، فإن المصادر المتعلقة بالقادسية هي مصادر إسلامية فقط. لذلك فإننا محرومون من وجهة النظر الأخرى التي ساعدت في إعادة بناء المعركة في سورية. فضلاً عن ذلك، كما قال دونَر، فإن هذه المصادر لا تقدم معلومات كافية عن الوضع (التكتيكي).[9] من ناحية أخرى، فإن مصدراً واحداً منها يؤمن وصفاً جيداً لأرض المعركة.[10] أما التفاصيل فتشير إلى أن موقع العرب كان محمياً بعوائق من كل الجهات. ففي المقدمة، كانت القناة الغربية للفرات (العتيق)[11] والميسرة كانت محمية ببحيرة النجق والقناة المؤدية منها إلى النهر، والميمنة كانت محمية بالمستنقعات، وإلى الأمام كان الخندق الذي حفر أيام ملك سابور ووراءه الصحراء، في وسط هذا المعقل الطبيعي، كان

حصن القديس القديم الذي استخدم مقراً لقيادة الجيش الإسلامي. وكان الخط الرئيسي للمعركة أمام هذا الحصن. ولم يترك موقع العرب، فضلاً عن كونه محمياً جيداً، إلا واجهة محدودة مع عدوهم.[12] وشكلت الجيرة (وهي كثبان مشكلة من الصخور من جهة والرمال من الجهة الأخرى) الواقعة جنوب بحيرة النجف، عائقاً آخر أمام الجنود. كان باستطاعة الخط الفارسي أن يمتد أكثر بقليل من كيلومترين. والمسافة من العتيق إلى حصن القديس حوالي نصف كيلومتر. لذلك، فإن الجيش الفارسي، بعد عبوره النهر، كان لديه مساحة كيلومتر مربع يمكنه الانتشار فيه. ولم يكن هناك متسع للمناورة.

لم يكن باستطاعة القائد الفارسي سوى اتباع خطة واحدة كي يتمكن من سحق خط القتال العربي بهجوم مواجهة. هذه الاستراتيجية كانت ملائمة لعدة أسباب. ومع أن الفرات كان يشكل عائقاً، فالجيش الساساني قد طور منذ زمن بعيد تقنياته في عبور الأنهار.[13] وقد سيطر العرب على الجسر القائم، لكنهم لم يمنعوا الفرس من العبور بوساطة واحد بديل. بالإضافة إلى براعتهم التقنية، كان للجنود الفرس تدريعاً أثقل، وكانوا في بادئ الأمر يفوقون العرب عدداً بنسبة ثلاثة إلى واحد.[14] ومع ذلك، وعلى الرغم من هذه العوامل لم يستطع الفرس اختراق الخط العربي.

استمرت المعركة أكثر من ثلاثة أيام. في اليوم الأول هاجم الفرس، وكانت الفيلة في مقدمة الهجوم. وأصيبت فرق الخيالة العربية بالارتباك. فجفلت الخيول وشردت في ردة فعل طبيعية.[15] ومن ناحية أخرى، استطاع الرماة والمناوشون من صد الخطر. وتشير الرواية التقليدية إلى بطولات غير عادية

قام بها بنو تميم.[16] يفترض أن المحاربين شقوا طريقهم نحو الفيلة حتى البرج وقطعوا عدته. إذا كانوا في الحقيقة اقتربوا إلى هذا الحد، فمن الصعب التخيل أنهم أهملوا قطع قوائم الحيوانات. على الأرجح أن العرب دحروا الفيلة بسد من السهام والرماح. ولم يستخدم الفرس الفيلة في اليوم التالي إذ يلزمهم الوقت من أجل إعادة تنظيم الفرق وإعادة النظر في طريقة الانتشار. في ذلك الحين، خابت هجمات الخيالة والمشاة الفارسية في اختراق الصفوف العربية. كان باستطاعة الفرس سحق أعدائهم بسبب القوة العددية ليس إلا. لكن، من ناحية أخرى، تفوق العرب في مجال الرماية، وأحدثت سهامهم الفوضى في صفوف العدو الكثيفة، كما يتبين لنا من خلال الرواية التالية:

> «روى أبو رجا الفارسي عن أبيه وعن جده قوله: لقد شاركت في معركة القادسية حين كنت مجوسياً. عندما قذف العرب بسهامهم نحونا، بدأنا نقول «دوك، دوك» أي سهام. ظلت هذه السهام تضربنا حتى هلك معظمنا. أحد رجالنا كان يرمي بقوسه (النواقية) لكن السهم كان يعلق فقط في درع المقاتل العربي، بينما السهام العربية كانت تمزق كساء الزردية والدرع المزدوج الذي كنا نرتديه.» (البلاذري 259– 260).[17]

قد يتساءل المرء: كيف تفوقت النبّالة العربية على النبّالة الفارسية؟ بالتأكيد كان الفرس متطورين أكثر في فن الحرب. في الواقع، كان الرماة الساسانيون يركزون على غزارة الرماية، أي الاطلاق السريع لأعداد كبيرة من السهام بشكل متتال. في معركة نموذجية، يؤدي اطلاق السهام بشكل متواصل إلى تغطية حركة القوات المهاجمة وهم يطبقون على العدو. مع ذلك،

فإن هذه التقنية لم تكن مناسبة على ما يبدو للقتال عن مسافات كبيرة. كان بروكوبيوس قد لاحظ سابقاً قصر مدى الرماية الفارسية في معركة كلنيكوم سنة (531 م)[18] ونسب ضعف صدمة السهم إلى ارتخاء وتر القوس. من المحتمل أن الفرس قد تخلوا عن بعض خصائص الرماية من أجل تحسين السرعة[19] ولكن ما كانت نقطة الضعف النسبية هذه لتحدث فارقاً لو أن الخيالة الفارسية قد استطاعت الانتشار بشكل قياسي. لكن لم يكن هناك أي مساحة للمناورة، والجيش الساساني لم يخض معركته المثالية في القادسية.

في اليوم الثاني، بدأت التعزيزات الإسلامية بالوصول، وقد كانت هذه أرسلت من سورية بعد النصر في اليرموك. كانت التعزيزات تضم الوحدات التي قاتلت سابقاً في العراق بالإضافة إلى كثير من المتطوعين. ليس هناك ذكر للتسلح في المصادر، لكن الملاحظ هو أن هؤلاء قاموا بحملات عديدة ناجحة لفترة لا بأس بها. ولابد أنهم أحضروا معهم مغانم الحرب من أسلحة أفضل، وخيول إضافية، ودروع لهم وربما لأحصنتهم. كانت هذه القوات مجهزة تجهيزاً جيداً كتجهيز سلاح الفرسان الفارسي، ولم تكن أعدادهم كبيرة (حوالي 1500 وصلوا في وقت المعركة) لكنهم شاركوا بشكل كبير في دعم المسلحين.

توالت حتى اليوم الثالث التعزيزات الآتية من سورية من جديد، وهاجم الفرس بالفيلة. أما سير المعركة فهو مبهم بسبب الروايات المشوشة في تاريخ الطبري.[20] مع ذلك، يمكن للمرء أن يأخذ منه مخطط معقولاً نسبياً. جرح العرب الفيلين اللذين في المقدمة، فذعر باقي القطيع وفرّ إلى الوراء

نحو صفوف الفرس. فهاجم عندها هاشم بن عتبة الذي قاد المقاتلين الآتين من سورية من خلال الصفوف المرتبكة. كان هذا كما يبدو عند ميمنة الفرس. وبلغ العرب الفرات لكن قلب الجيش الفارسي وميسرته صمدوا.[21] تابع المسلمون ضغطهم خلال الليل، وعند عند طلوع الفجر، تراجع الجيش الفارسي وبدأ بالانسحاب عبر النهر، ثم تدهور الانسحاب إلى هزيمة منكرة. مرة أخرى، نرى أن سلاح الفرس، في هذه الحالة: فيل الحرب، لم يعمل لصالحهم. إن استعمال الفيلة في الحروب قد كان توقف منذ زمن بعيد في منطقة المتوسط، فقد أثبتت عدم فعاليتها أمام جنود ذوي خبرة. كما أن قيادتها لم تكن سهلة أبداً بسبب ميلها إلى الفرار المفاجئ في أي اتجاه. اصطدمت الفيلة الفارة بصفوف أسيادها في بن فنتم عام (275 ق. م) وفي زاما (202 ق. م) وفي مغنيزيا عام (190 ق. م) وفي نومانتيا عام (153 ق. م).[22] ويتساءل المرء لماذا أبقى الساسانيون على فيلتهم؟ ربما كانت تستعمل في حملاتهم ضد الهند. ومهما كانت الحال، فإن استعمالها في القادسية أظهر أن القائد الفارسي استخف بصلابة المشاة العرب. كان البيزنطيون قد ارتكبوا الخطأ نفسه في اليرموك، إذ توقع القادة الفرس والرومان أن يتشتت رجال المشاة العرب عند مواجهتهم بالخيالة الثقيلة، أو بالفيلة أو بأي قوات صدم أخرى. غير أن ما كان متوقعاً لم يحدث. فخطوط الدفاع العربية لم تنكسر بسهولة إذ كانت مؤلفة من فرق قد تمرست في القتال، راجلين وفي الصفوف. كانت هذه الفرق مؤلفة من حِمْيَر، وهمدان، وخولان، وحضرموت، ومن أهل المدينة ومكة ومَن رجال الطائف. كان القتال على الخيول سائداً في صحاري

نجد وسورية، ولم يكن الأمر كذلك في مناطق الحضر في الحجاز وجنوب جزيرة العرب. وعلى الرغم من الخبرة، ربما افتقر المشاة العرب للدروع كي يكونوا نداً لقوات الصدم العدوة. لكن استعمال قطعان الجمال كطوق قتالي في اليرموك والتفوق النسبي لرماية العرب في القادسية جعلتهم يتخطون فقرهم إلى الدروع.

كان لجوء المسلمين لاستراتيجيات دفاعية في اليرموك والقادسية اضطرارياً بسبب قلة قوات الصدم وقلة الأعداد البشرية بشكل عام. وكانت الانتصارات مدهشة أكثر وأكثر لأنها حصلت في مناطق كانت الخيالة فيها هي السلاح المسيطر في الحروب لقرون عديدة. لكن هذه الانتصارات لم تغير القاعدة العامة. فالقيادة العسكرية الإسلامية اعترفت بأن هذه الانتصارات كانت وليدة حظ بعض الشيء، وأن التكيف كان ضرورياً. ولأن الجيوش الإسلامية تفتقر إلى الخيول الثقيلة فانها قد ترتكب خطأً في المبادرة التكتيكية لصالح العدو، ولم تكن مواصلة الانتصارات محتملة في مثل هذه الظروف. ولأن العرب استولوا على دروع وخيول بعد انتصاراتهم الأولى، فقد بدؤوا بإدخال قواتهم الخاصة من الخيالة الثقيلة في كلتا ساحتي الحرب، وبدأ عنصر الخيول في الجيوش الإسلامية يزداد. وضمت الفرق المتعددة التي انضمت لعمرو ابن العاص في فتح مصر (640 – 641 م/ 19– 20 هـ) العديد من الفرسان (انظر الطبري 2589/1 و 2592)[23]. هذه القوات أصبحت بعد فترة إحدى أفضل القوات العاملة تجهيزاً وجاهزية في تلك الحقبة. سعى الجيش لزيادة سلاح الفرسان بمساعدة من الخلافة. وقامت الخلافة في المدينة بجهود

لتوفير المطايا والاحتفاظ بمراع للجيش. وألزم عمر بن الخطاب المسلمين في مختلف المعسكرات الكبرى أن يتخلوا عن خيولهم الإضافية ليحتفظ بها احتياطياً للحرب (الطبري 1/ 2499) كما كلّف على الأقل والياً من الولاة إنشاء مشروع لتربية الخيول قرب البصرة (البلاذري 350– 351).

وقامت الخلافة الاسلامية بتعبئة قدرات أمصارها لتتغلب على قلة القدرات البشرية العسكرية بشكل عام. بما أن القدرات البشرية في الحجاز وجنوب جزيرة العرب قد كانت استنزفت لتشكيل أول جيوش الفتح، فإن القيادة العسكرية التفتت إلى مصادر أخرى للحفاظ على قوة الوحدات الميدانية أو دعمها. لم تكن سياستها متعصبة أبداً. فالمحاربون من قبائل ثارت عليهم في السابق قاتلوا إلى جانب جيش العراق، كما قاتل رجال القبائل المسيحية في الصحراء السورية إلى جانب المسلمين في اليرموك. على الجبهة الشرقية، تخلى كثير من الفرس عن القضية الساسانية وتم استقبالهم في الجيش الإسلامي بغض النظر عما إذا كانوا يودون الدخول في الإسلام: انظر (الطبري 1/ 2261 و 2497). هذه القوات عززت قوة المسلمين في القادسية وفي المعارك اللاحقة. وقد خدمت كحماة للحدود في حلوان، وماسابذان، وقرقيسيا، والموصل (الطبري 1/ 2497). في سورية، انضم كثير ممن خدموا في الجيش الروماني إلى المسلمين في أثناء الفتح. هؤلاء أيضاً تم دمجهم بالجيش وبعضهم شارك في فتح مصر.[24]

كانت قوة المسلمين العسكرية تزداد عدداً وتتحسن نوعاً. وقد شهدت الانتصارات اللاحقة على الساسانيين والبيزنطيين

بتغير موازين القوى. في جلولاء (627 م / 16 هـ)، ونهاوند (624 م/ 21 هـ)، قاتل الجيش الفارسي بطريقة دفاعية،[25] وفي هليوبوليس (640 م / 19 هـ) تفوق عمرو بن العاص في المناورة على البيزنطيين، فقد أرسل رتلين تحت جنح الظلام إلى مواقع تمكنا من تطويق العدو. وعند تقدمه من مخيمه المحاط بخندق، وجد الجيش الروماني نفسه ملتحماً بثلاثة جيوش.[26]

استولى المسلمون على أراض واسعة خلال السنوات العشر التي تلت غزو الأراضي الرومانية والفارسية. فقد سيطروا على جزيرة العرب ومصر، وفلسطين، وسورية، وقيليقيا، والمناطق العليا لبلاد ما بين النهرين (الجزيرة) والعراق، والمقاطعات الفارسية الغربية. في الغرب، استولوا على برقة (على شاطئ سرير كلسيو) وفي الشمال غزوا مناطق في أرمينيا، وفي الشرق احتلوا الري وكانوا يهاجمون فارس ومقاطعات أخرى. لكن، لم يكن النظام الإسلامي، رغم دهائه وحنكته، يستطيع دعم التقدم على كل تلك الجهات. فبقي يهاجم الأراضي البيزنطية، إلا أن زخم الغزو في الشمال توقف بصورة شبه نهائية عند جبال طوروس وأنتي طوروس وجبال القفقاز. كان هناك بعض المكاسب المؤقتة في الغرب لكن الفتح النظامي للساحل الإفريقي الشمالي تأجل لعدة عقود. وفي الشرق، كانت المقاومة أضعف، فاستمر الفتح، ومع انتهاء العقد التالي أكد المسلمون سيطرتهم على فارس، وكرمان، ومكران، وساجستان، والمناطق القزوينية في فارس. واكتمل فتح خراسان نهائياً حوالي سنة (671 م / 51 هـ)؛ بينما استمر الفتح في الشرق. وقد عزز النظام الإسلامي مكاسبه وحسن دفاعاته في أماكن أخرى. ربما كان معاوية بن أبي سفيان الأكثر

انشغالاً في هذه الأمور. فقبل تسلمه الخلافة سنة (661 م / 41 هـ) كان حاكماً على الشام (سورية، فلسطين، قيليقيا، والجزيرة) لحوالي عشرين عاماً. أدرك معاوية جيداً أن البيزنطيين ما يزالون عدواً قوياً. وكحاكم، كان متحمساً للقيام بحملة بحرية ضدهم، لكن عمر منعه عن ذلك بشكل مؤقت. في هذه الأثناء اهتم معاوية بأمور الدفاع.

بعد سيطرة المسلمين على سورية، هاجر كثير من السكان إلى الأراضي البيزنطية الشمالية، وظل العديد من سكان المدن الساحلية والمناطق الحدودية على ولائهم للإمبراطورية البيزنطية. لذلك، فإن معاوية كان يواجه مشكلات سكانية. وعملاً بتعليمات عمر بن الخطاب، وبعده عثمان، قام بجهود كبيرة لإعادة إسكان أنطاكية وإعالة حاميته (البلاذري 147-8). وقام معاوية أيضاً بإعادة إعمار وإسكان وتوفير حاجات لكل من بلدان انطرطوس، ومراقية، وبولونياس (البلاذري 133). كما قام بتوطين أعداد كبيرة من اليهود في طرابلس بعد أخذها نهائياً من البيزنطيين (البلاذري 127). وعند تسلمه الخلافة، قام بنقل بعض الإيرانيين ومنهم جنود، إلى بعلبك، وحمص، وأنطاكية؛ ثم نقلهم إلى أماكن أبعد مثل عكا، وصور، ومدن ساحلية أخرى، وذلك خلال السنة الثانية لخلافته. كما قام أيضاً بنقل كثير من الجنود الفرس من الكوفة والبصرة إلى حامية أنطاكية (البلاذري 117). وبعد بضع سنوات، قدم (5000) سلافي إلى المسلمين في أثناء إحدى حملاتهم في الأناضول فوطنهم معاوية قرب مدينة أفاميا.[27] أما بالنسبة إلى البداة العرب، فقد سرى عليهم أيضاً تنقل السكان داخل سورية. وفي أثناء خلافة عثمان، أمر معاوية بتوطين بعض

القبائل في المناطق الصحراوية. لذلك، قام بنقل عدة مجموعات إلى أقاليم في شمال الفرات.

ويرتبط بمشكلة السكان مهمة إصلاح القوات العسكرية السورية، إذ انتشر وباء عرف بطاعون عمواس في سورية سنة (639 م / 18 هـ) وقضى على قسم كبير من الجيش الإسلامي.[28] ومع هجرة العرب نحو الشرق، اضطر معاوية إلى تجنيد السكان الأصليين للإبقاء على مؤسسته العسكرية. كان السوريون جنوداً ممتازين، فانضباطهم وإمكانية الاعتماد عليهم واضحة في سجلات الخليفة،[29] في حين كانت جيوش الكوفة والبصرة تضم بعض العصابات، وبالتالي، كانت تشكل خطراً دائماً على الاستقرار السياسي. وعندما كان معاوية حاكماً لسورية، كانت تحت امرته قوات أخرى أيضاً. فقد تجند العديد من السكان الذين كانوا يسكنون أو الذين استوطنوا في مناطق الحدود كميليشيات. كما أنهم أمنوا قواتاً رديفة في الحملات السنوية لغزو الأناضول. واتسم معاوية بالتسامح حيال القوات العسكرية، فكثير من جنوده النظاميين وكذلك قوات الاحتياط كانوا من النصارى.

بعد تحصين سورية برياً، سمح عثمان لمعاوية بمهاجمة قبرص. فاستملك سفناً من المناطق الساحلية لسورية، ووجهها نحو عكا. هناك، كما في صور، كانت الترسانات البحرية قد أعيد بناؤها (البلاذري 117). هذه المرة أيضاً، جمع معاوية قوات، ثم أطلق الحملة سنة (694 م / 28-29 هـ). فنزلت القوات الإسلامية على الشاطئ واستولت على عاصمة الجزيرة. ففرض معاوية اتفاقية وافق فيها الوالي البيزنطي على دفع الجزية والبقاء محايداً في أي نزاع بحري قد يحصل

لاحقاً «البلاذري 153». ثم انسحب المسلمون من الجزيرة، لكنهم تابعوا حملتهم فسيطروا على [جزيرة] أرواد وهاجموا رودس وصقلية. في هذه الأثناء، قام شقيق عثمان، ويدعى عبد الله، ببناء القوة البحرية المصرية فأصبح الأسطول المصري القوة الرئيس في البحرية الإسلامية لأنه كان أكبر من الأسطول السوري. كان بحارة السفن المصرية أقباطاً ومقاتليها مسلمين.[30] وفي عام (653 م / 31 هـ) صد الأسطول المصري الأسطول البيزنطي قرب شاطئ الإسكندرية. ثم اجتمع الأسطولان الإسلاميان معاً في عملية نتج عنها تدمير البحرية البيزنطية قرب شاطئ لكيا عام (655 م / 34 هـ).[31] ولم يستطع المسلمون متابعةَ هذا النصر لأسباب سياسية. فقد اغتيل الخليفة عثمان في حزيران عام (656 م / ذو الحجة 35 هـ) . وأدى ذلك الحدث إلى أربعة عقود من الاضطرابات حيث دمرت الأقاليم الإسلامية بسبب الحرب الأهلية وقيام المجموعات المتطرفة، لكن الخلفاء الأمويين استطاعوا الحفاظ على وحدة الدولة. بعد تولية عبد الملك (685-705 م / 65-86 هـ) أُعيد إرساء النظام واستؤنف الفتح.

إن نجاح عمليات عبد الملك وعمليات خلفه الوليد يعود بشكل أساس إلى سياسات معاوية العسكرية والبحرية. كما سهلت أعمال الأسطول الأموي، ومساهمة القوات السورية، الفتح النظامي لشمالي إفريقية وإسبانيا. وتم غزو السند حيث ساهم (6000) سوري في هذه العملية، بينما قامت قوات الكوفة والبصرة بغزو ترانزكسيانا. لكن حامية شامية ضخمة كانت في وسيط للتحقق من أن هذه القوات تقوم بالحملات للخليفة وليس ضده.

يبدو إذن أن الفتوحات الأولى للدولة الإسلامية يمكن بالفعل تفسيرها بلغة العلوم العسكرية إذ أن الانتصارات نتجت عن العوامل الآتية: إن الفن الحربي الإسلامي كان متطوراً بعض الشيء (هذا الأمر يمكن ربطه بتأثيرات من جنوب الجزيرة العربية). كما كانت القيادة العسكرية لامعة في المجال الاستراتيجي والتكتيكي، والنظام كان يتصرف بسرعة في تعبئة موارد الأراضي المكتسبة حديثاً. وأخيراً، استطاع كل من الجنود والقادة التكيف مع فنون العدو الحربية. إلا أن شرحاً من هذا النوع لا يلغي الشروحات الأخرى، لكنه يبدو أكثر إيجابية وواقعية. إن معظم القضايا، كالحماس الديني والحافز الاقتصادي والشجاعة، لا يمكن إثباتها بشكل موضوعي. تبقى حقيقة مسلم بها، وهي أن المشاكل الاقتصادية والسياسية أضعفت بيزنطة والإمبراطورية الساسانية. غير أن هذا العامل ليس إشارة إيجابية للقدرات العسكرية الإسلامية، بل انعكاس سلبي لهاتين القوتين.

هوامش: ‹تطور فنون الحرب الإسلامية: الفتوحات الأولى›

* J. W. Jandora, Developments in Islamic warfare: the early conquests. Studia Islamica LXIV. G. -P.Maisonneuve-Larose. Paris MCMLXXXVI.

يمثل هذا المقال ملخصاً للآراء التي سترد في كتاب يصدر لاحقاً. ولأنه سيحتوي تفاصيل ووثائق، فقد قمت بالتعميم دون أن أشير إلى المصادر. فآمل هنا أن يكون القارئ متسامحاً مع رغبتي في الاختصار.

1- For a brief summery of the relevant works, see Fred M. Donner, The Early Islamic Conquests (Princeton: Princeton University Press, 1981), pp. 3-9.

2- "L'expansion Arabe: le problem Militair", L'occidente e l'Islam nell' Alto Medioevo, I (1965), pp. 37-63.

3- leur valeur militaire; Ibid, p. 63.

4- Early Islamic Conquests.

5- Exceptional cases are Talal Asad, "The Bedouin as a military Force: Notes on Some Aspects of Power Relations between Nomads and Sedentaries in Historical Perspective", in Cynthia Nelson, (ed). The Desret and the Sown - Nomads in the Wider Society (Berkely: Institute of International Studies, 1973) (see p. 66) and Donald Routledge Hill, "The Role of the Camel and the Horse in the Early Arab Conquests", in V. J. Perry and M. E. Yapp) eds. (War. Technology and Society in the Middle East (London: Oxford Universityy Press, 1975) (see p. 39).

6) يبقى دونّر ميّالاً لرأيه، على الرغم من أنه توصل إلى نتيجة مفادها أن معظم أعباء القتال وقعت على عاتق المشاة، خاصة أولئك الذين أتوا من مناطق الاستقرار في جزيرة العرب التي وافرت كتائب كثيرة في الجيوش الأولى. إن مؤلفه مليء بالتلميحات إلى قوة البدو العسكرية؛ انظر:

The Early Islamic Conquests, pp. 41-49, 89f, 223, 264, 266.

7– The Great Arab Conquests (Englewood Cliffs: Prentice Hall, 1967), p. 178.

8) أنظر هذا الكتيب (الناشر).

9– Early Islamic Conquests, p. 204.

10) انظر الخبر الذي نقله سيف عن عثمان في تاريخ الطبري (2226–30).

11) اعتقد الجغرافيون العرب أنها أقدم من القناة الشرقية، ولذلك أطلقوا عليها اسم (العتيق).

12) غاب هذا الاحتمال عن ذهن سيد محمد يوسف في مقاله «معركة القادسية» [انظر هذا الكتيب]. وإذا أخذنا بعين الاعتبار التبدل المستمر في مجرى المياه والتصحر، فليس في إمكان المرء أن يكون متأكداً بشكل كامل من تضاريس الموقع في ذلك الوقت. لكن أخبار تفاصيل المعركة تشير إلى أن تضاريس الموقع قيّدت حركة الفرس.

13) لاحظ بروكوبيوس (Procopius) خلال استعراضه أحداث الحرب الفارسية الثانية (540–545 م) مهارة الفرس في عبور الأنهار. انظر: .(History of the Wars ii, 2121-22)

14) تشكل مسألة الأعداد مشكلة هنا، كما هي في سائر حركة الفتوحات. انظر تعليقاتي على هذه المسألة بالعلاقة مع معركة اليرموك [انظر البحث في قسم سابق من هذا الكتيب (الناشر)]. وفيما يتعلق بمعركة القادسية، فإن العدد الذي رددته المصادر يتراوح بين ستة آلاف وثلاثون ألفاً لجيوش الإسلام، وثلاثون ألفاً إلى مئتين وعشرة آلاف للجيش الفارسي. لقد عمل دونّر تخميناً دقيقاً لمختلف الألوية التي تشكل منها جيش المسلمين (انظر Eeraly Islamic Conquests, pp. 205-09). وتشير إحصاءاته إلى أن العدد (12000) يشكل أفضل تقدير لمجمل قوة العرب (بما في ذلك القوات التي وصلت خلال المعركة). وفيما يتعلق بالساسانيين، فإنهم قد كانوا خرجوا للتو من عدم استقرار دام سبع سنوات. وعلى الأرجح أنهم ما كانوا سيجزون بأعداد غفيرة ضد العرب. ويضاف إلى ذلك، فإن الملاحظة بأن الفرس وظفوا قوات عمقها (13) يعد مؤشراً جيداً على قوتهم (الطبري 2329/I)، إن منطقة عرضها (2) كيلومتراً تسمح بوجود قوات (2000) رجل: (2000 x 13=26000). لذا فإن العدد

(30000) هو أفضل تخمين لقوة الفرس.

15- See R. F. Glover, "The Tactical Handling of the Elephant", Greece and Rome, XVII (1948), pp. 4-5.

16) أنظر (الطبري 1/ 2299- 2301).

17- al-Baladhuri, Futuh al-Buldan, ed. M. J. de Goeje. (Lugd. Bat: E. J. Brill, 1866), pp. 259-260.

18- Wars i. 18. 31-34.

19- See Nabih Amin Fares and Robert Potter Elmer. (trans And eds), Arab Archery (Princton :Princton University Press, 1945). Consider for example grip and clench) pp .46-49 (as they relate to shower shooting (pp .150-153).

20) إن سرد الأحداث في هذا المصدر يوحي بـ(سيناريو) غير معقول. إن العرض يشير وفق رواية الاستعراض الثاني الذي نقله سيف عن محمد عن طلحة وزياد (1/ 2318-2380). وهذا يذكر اختراق هاشم بن عتبة صفوف الفرس. ثم يلتفت إلى الحديث عن الأفيال. وتصف الروايات اللاحقة البطولات التي أدت إلى تدافع القطيع وارتداده نحو الفرس. بناء على ذلك، لقد تم اختراق صفوف الفرس مرتين، وفشل العرب مرتان في الاستفادة من ذلك، واستمرت المعركة حتى الليل. لقد قُبل هذا (السيناريو) دون تحفظ

(William Muir, Annals of the Early Caliphate (Amesterdam: Oriental Press, 1968), pp. 172-173; Yusuf, "The Battle of al-Qadisiyya", pp. 20-23; and Glubb, The Great Arab Conquests, p. 198).

21) مرة أخرى، إن المصادر هنا على جانب كبير من الغموض. رغم ذلك، يلاحظ المرء التسلسل الذي ذكر إرسال كل من طليحة وعمر إلى المخاضة (الطبري 1/ 2327-2328). إن هذه الإرسالية ستكون منافية للعقل ما لم يكن المسلمون قد كانوا عبروا النهر.

22- For further, see Glover, "The Tactical Handling of the Elephant".

23- See John of Nikiu, The Chronicle of John, Bishop of Nikiu, trans. R. H. Charles (London: Williams and Norgate, 1916), cxiii 3-4 and cxviii. 4.

24) ابن دقمق: كتاب الانتصار لواسطات عقد الأمصار، تحرير كارل فُلّرز.

بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، 1966، ص 5.

25) إن المصادر المتبقية لا تسمح بتتبع مجرى أي من المعركتين. على الرغم من ذلك، فإنها تشير بشكل متكرر إلى خنادق الفرس وقلاعهم (chevauz de frise) ومحاولات المسلمين الإيقاع بقوات العدو على مسافة من معسكرهم المحصن. وهناك قليل من الشك في الطرف الذي حارب دفاعياً. انظر (الطبري 2456/1-2463 و 2596-2637).

26) أجد إعادة تركيب هذه المعركة التي قام ألفرد بتلر مقنعة تماماً. لكنني لدي تحفظات على تقديراته العددية والميول. [انظر: معركة هليوبوليس في القسم الثالث من هذا الكتيب (الناشر)].

27- Theophanes, The Chronicle of Theophanes, trans. Harry Turtledove (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1982), p. 48.

28) البلاذري 139-140، وابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق. مراجعة: صلاح الدين المنجد (دمشق: المجمع العلمي العربي، 1951) 557/1-558.

29) يبدو أن معاوية تمكن من تخفيض التأثيرات القبلية وغيرها على الجيش الشامي. ولم تصلنا أية سجلات عن تنظيم الجيش.

30- See H .I .Bell and W .E .Crum, (eds.) Greek Papyri in the British Museum, Vol. IV: The Aphtodito Papyri (London :British Museum ,1910), pp. XXXII-XXXV.

31) تعرف المعركة في التأريخ العربي العربي باسم: ذات الصواري. انظر المرجع الآتي:

Ibn 'Abd al-Hakam, Futuh Misr, ed. Charles C. Torrey ("Yale Oriental Series, Researches", Vol. III; New Haven: Yale University Press, 1922), pp. 189-191.

بن فنتم (Beneventum): مدينة تقع شمال شرقي نابولي بإيطاليا (الناشر).

زاما (Zama): المقصود هنا المعركة الفاصلة التي هزمت فيها القوات الرومانية الجيش القرطاجي بقيادة هنيبال في ساقية سيدي يوسف بالقطر التونسي. لكن المؤرخين لم يتمكنوا من التعرف بشكل دقيق على المكان المقصود لأن

الرومان أطلقوا عليه اسم (ترَاغَّارا) (الناشر).

مغنيزيا (Magnesia): مدينة تقع في آسية الصغرى وقعت فيها المعركة الحاسمة بين القوات الرومانية والسلوقية (الناشر).

نومانتيا (Numantia): مدينة تقع في إسبانيا.

ترانزكسيانا (Transxiana): إقليم عرفه العرب باسم: ما وراء النهر.

كَلِّنيكوم (Callinicum).

جون بَغوت غلوب (John Bagot Glubb).

دور الجمل والخيل في الفتوحات العربية المبكرة*

1) الجمل

تستعمل المصادر العربية[1] في معظم الأحيان كلمة ‹بعير› للدلالة على ‹الجمل›. وهذه الكلمة هي أساساً لأنثى ‹الجمل› إلا أن البداة استعملوها في القرن العشرين للدلالة على ‹الجمل› بغض النظر عن جنسه. ومن الأسماء الأخرى الشائعة الاستعمال، كلمة ‹ناقة› أي أنثى كبيرة في السن، و‹إبل› اسم الجمع من ‹الجمال› و‹جمل› أي الذكر من هذا الحيوان، و‹راحلة› أي: «أنثى الجمل التي يمكن ركوبها». أما لفظة ‹ركاب› فتعني عادة: «الجمل الذي يمكن ركوبه». وقد وردت في الآية (6) من سورة الحشر للتفريق بين الجمال والخيول. تستعمل أحياناً كلمات أخرى، مثل ‹ناضح› التي تعني: «الجمل الذي يستقى عليه الماء، والذي يركب أحياناً» و‹نجيبة› أي: «الناقة الأصيلة التي تركب» بينما تستعمل أيضاً كلمتي ‹ذلول› و‹مطيّ› للجمال التي تركب. أما كلمة ‹بكر› فكانت تعني الحيوان الصغير؛ وأحياناً استعملت كلمة ‹دابة› لكنها كانت تعني الحيوان الذي يركب والحيوان المخصص للتحميل. كانت النساء تحمل داخل هوادج على ظهور الجمال؛ والهوادج

نوع من الأقفاص ذات الدعائم الخشبية، وكانت تعرف بـ(الظعينة) واللفظة نفسها كانت تطلق استطراداً على النساء اللواتي كنّ يمسكن العنان.

إن قلة الموارد في صدر الإسلام يمكن ملاحظتها من خلال نقص الجمال في غزوة بدر، حيث لم يتوافر سوى سبعين جملاً لثلاثمئة رجل. في هذه الغزوة كما في غيرها من الغزوات، كان الرجال يتداولون ركوب الجمال. المكيون أيضاً، لم يكن لديهم من الخيل ما يكفي للرجال جميعهم يوم بدر ويوم الخندق. غير أنه نادراً ما كان عدد الجمال غير كاف في العمليات التي جرت خارج الجزيرة العربية.

مع ذلك، كان لا بدّ للوضع من أن يتحسن تدريجياً، بما أن الجمال كانت تؤخذ غالباً غنائماً؛ وتزامن ذلك مع إقبال البدو الذين يمتطون الجمال على اعتناق الإسلام، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع نسبة الجمال التي يستخدمها المحاربون. كان من الصعب جداً أن يعتزم امرؤ القيام بسفرة طويلة في الصحراء إذا لم يتوافر لديه جمل، حتى أن غزوة (حمراء الأسد) التي جرت بعد غزوة أحد، اعتبرت غزوة مضنية على الأقدام. لكن يبدو أنه مع تقدم الفتوحات الخارجية كانت الغالبية العظمى من المسلمين تمتلك جمالاً خاصة بها.

قلما تشير المصادر إلى أن الأسفار كانت تتم على ظهور الجمال؛ وكل ما كانت تذكره هو «أنهم ذهبوا إلى المكان الفلاني» حتى في الأسفار التي امتدت إلى مئات الأميال. إلا أن الإشارات الهامشية إلى الجمال، تؤكد أن القوات العربية في الجزيرة وسورية والعراق وبلاد ما بين النهرين قد اعتمدت

على الجمل وسيلة للتنقل. ثم إن الجيش الذي قاده عمرو بن العاص لغزو مصر أشير إليه في أحد نصوص تاريخ الطبري على أنه قوات الفرسان. كما يشير جون أوف نيكيو دائماً إلى أن المسلمين كانوا يمتطون صهوات الجياد،[2] ولا يركبون الجمال في حين تمت الإشارة إلى أن الجمال كانت في كل من مصر وشمالي إفريقية. وقد توقع المسلمون عند غزوهم مصر أنهم سيأخذون الجمال غنائماً، بما أن الجمال الوحيدة السنام كانت قد دجنت في مصر وشمالي إفريقية منذ أمد بعيد، ولم يكن هناك أدنى شك في أنهم سيسدون احتياجاتهم.[3] ربما كانت نسبة الفرسان في قوات عمرو مرتفعة بالمقارنة مع الجيوش الإسلامية في ساحات الحرب الأخرى، لكن، في أغلب الظن، أن قوات الغزو والحملات على المغرب اعتمدت بشكل أساسي على الجمال في التنقل.

لقد دجن الجمل الوحيد السنام قبل الغزو العربي بقرون عديدة على امتداد الصحراء، وفي المناطق المنحدرة التي كانت على اتصال بري مباشر بالجزيرة العربية، حيث لا تعيقه بحار ولا سلاسل شاهقة من الجبال. مع هذا الاتصال للأراضي ولحضارة الجمل، بالإضافة إلى إثباتات المصادر، يصبح من المؤكد أن أساليب القتال والتنقل في هذه المناطق بقيت مماثلة جداً لتلك المتبعة في الجزيرة، لاعتمادها على الجمل الوحيد السنام كوسيلة لا غنى عنها في التنقل لمسافات طويلة.

أما روايات الحروب التي جرت في مرتفعات إيران وآسية الوسطى، فلا تتضمن سوى إشارات قليلة إلى الجمل. إحدى المصادر تشير إلى أن هذه الجمال هي على الأرجح من نوع

ذات السنامين، وهذا النوع هو للتحميل، ويمكن ركوبه للسير البطيء وليس للركوب السريع. وقد استعمل السعلة المتجهون إلى المدينة الجمل الوحيد السنام، لكنهم كانوا يستقدمونها من الكوفة أو البصرة. أما في المرتفعات، فقد أدى استخدام البغال وأحصنة التحميل والجمال ذات السنامين إلى تغيير الطرق التقليدية لحروب البدو وتنقلهم. لكن على عكس الوضع في الأراضي الصحراوية، فإن الأسلوب الفارسي للحرب مع تشكيل نخبة مؤلفة من سرايا الفرسان، ومع اتباع قاعدة عامة تقضي بأن تكون غالبية الرجال المقاتلين من المشاة، فإن ذلك الوضع جعل معظم الجنود من دون مطايا.

لم تتوافر لدينا أية أدلة تشير إلى طريقة التنقل في أراضي الصحراء الكبرى القاحلة وخراسان. فالغارات الأولى على بلاد خراسان كانت من جهة الصحراء حيث يندر وجود الماء والظروف عامة لا تناسب الخيول والبغال. وقد كان الجمل الوحيد السنام معروفاً جيداً في هذه المناطق قبل الفتح الإسلامي بقرون؛ إذ استخدمه على سبيل المثال الإسكندر الأكبر في زحفه من برسيبوليس إلى خراسان.[4] بالتالي يرجح أن الجمال الوحيدة السنام كانت متوافرة للعرب يستعملونها وسيلة نقل ومطايا في الصحاري والمنحدرات شرق وشمالي شرق الهضبة الإيرانية.

لقد استخدم العرب الجمل الوحيد السنام مطية ودابة للتحميل؛ كما استخدموه في الزراعة؛ ولم يكن من السهل القتال من على ظهر الجمل، لذا كان نادراً ما يستعمل مطية للفرسان في الغزوات والحروب. لقد قاتل قائد هوازن في

غزوة حنين بالرمح وهو يمتطي الجمل، ومع أنه يحكى عن فرقة من الجنود على ظهور الجمال شاركت في معركة القادسية، لكن مثل هذه الروايات تبقى نادرة بينما تفوقها بكثير تلك التي تبين ترجل الفرسان إذ كانت الجمال تترك في المعسكر بحراسة الرقيق؛ وفي معركة اليرموك عقلت الجمال ووضعت حول المعسكر. بالتالي، فإن المقاتلين الذين لم تتوافر لهم الخيول وقاتلوا على ظهور الإبل اعتبروا مشاة راكبة. تفاوتت سرعة الزحف وفقاً لطبيعة الرحلة ووفقاً لتشكيل القوات. بالطبع، كان أسرع الزاحفين هم السعاة الذين لم تعق حركتهم لا الأمتعة ولا النساء والأطفال. كانت الرحلة من مكة إلى المدينة، أي مسافة تفوق المئتين وخمسين ميلاً، تستغرق ثلاثة أو أربعة أيام. ويقال إن رحلة المثنى بن حارثة من المدينة إلى الحيرة، أي لمسافة (670) ميلاً تقريباً، قد استغرقت عشرة أيام. وتتوافق هذه الأرقام إلى حد كبير مع تلك التي يضعها الكتاب المعاصرون. إذ سافر تيساغر مسافة (450) ميلاً في تسعة أيام،[5] وقد استغرقت مسافة (94) ميلاً ساعيين على بعيرين مدة (24) ساعة،[6] كما أن رجلاً يمتطي جملاً اجتاز مسافة (160) ميلاً في رحلة استمرت من شروق الشمس حتى غروبها؛[7] ثم نام الليل وفي اليوم التالي استغرقت طريق العودة من شروق الشمس حتى غروبها. يقول دوتي أن ذلولاً (وهو جمل يمكن امتطاؤه) في حالة جيدة، قد يجتاز (70) ميلاً في اليوم إذا كانت الأسفار قصيرة، ويمكنه اجتياز (60) إلى (65) ميلاً في اليوم لمدة أسبوع، و(50) ميلاً في اليوم لمدة أسبوعين.[8] هكذا، يمكننا الافتراض بأن سرعة السعاة أيام الغزوات كانت مماثلة لهذه التقديرات، أي أن

الخيال يمكنه أن يجتاز (100) ميلاً في اليوم الواحد، و(400) في أسبوع، و(700) في أسبوعين.

كانت مدة أسفار الفرق المغيرة مدهشة أيضاً رغم أنها كانت أبطأ من السعاة. كانت تقدر سرعة الانتقال من تبوك وإليها وسرعة تقدم قوات أسامة من البلقاء وإليها في كلتا الحالتين بحوالي (40) ميلاً في اليوم. أما في مرحلة انقطاع الماء خلال رحلة خالد بن الوليد بين قراقر وسوى، فقد كان معدل التقدم/ السير (35) ميلاً في اليوم.

أما رحلة سعد بن أبي وقاص وجنوده إلى القادسية فتأثرت باعتبارات أخرى لا علاقة لها بقدرة تحمل الرجال والمطايا. فمعظم المجندين أتوا من اليمن بصحبة نسائهم وأولادهم وممتلكاتهم المنقولة. لذا فإن التنقل قد تم على عدة مراحل من جهة لضمان وفرة المياه والمراعي، ومن جهة أخرى لتجنيد المزيد من المحاربين الذين ينتمون إلى القبائل المحلية، لذلك، لم تتجاوز سرعة التقدم العشرين ميلاً في النهار.

2) الفرَس

يكثر ذكر الخيل والفرسان في المصادر؛ ورغم أن عدد الجمال كان يفوق بكثير عدد الخيل، خصوصاً في الفترات الأولى، إلا أن ذكر الخيل فاق ذكر الجمال بكثير. يدعى الحصان في معظم الأحيان «فرس» وراكبه «فارساً». كان محمداً يدعو الحصان الأنثى فرساً وهذه الكلمة هي للمؤنث، لكنها أصبحت تعني عند البداة العصريين أي حصان بغض النظر

عن جنسه، لأنه باستثناء بعض الحالات، لم يقتنوا سوى الفرس.

غالباً ما كانت توصف الحيوانات بذاتها وصفاً دقيقاً من حيث اللون، والوسم، والمزاج، والعتاد والاسم. كانت كلمة خيل هي الاسم الشائع لسلاح الفرسان وهي غالباً ما تستعمل لوصف تشكيلات الخيل في مختلف الظروف؛ وكلمة (كراع) جمع يدل على كل المطايا ولا تعني أبداً تشكيل المعركة. لقد استعملت أسماء أخرى لوحدات الفرسان تختلف وفقاً للمهام المناطة بها:

الكتيبة: كانت المقابل لسرية الخيالة.

الطليعة: كانت عادةً فرقة صغيرة للتجسس أو دورية استطلاع ترسل للحصول على معلومات ويتراوح حجمها بين رجل واحد وعشرة رجال؛ لكن العبارة نفسها تطلق أيضاً على فرقة الهجوم، وفي السنوات الأخيرة أصبحت تستعمل لوحدة من تشكيلة التعبية.

السرية: كلمة تتضمن أيضاً معنى الطليعة أي دورية ترسل للحصول على معلومات أو لجمع العلف. أما في مغازي الواقدي فقد استعملت هذه الكلمة لتمييز الغزوات التي لم يشارك فيها محمد من تلك التي قادها بنفسه.

الجريدة: كلمة كانت تستعمل عادة على نحو (جريدة خيل) للتدليل على فرقة من الخيالة تعمل بشكل مستقل؛ على سبيل المثال غارات تتغلغل إلى داخل أراضي العدو.

المجردة: هذه الكلمة كانت تعني في تشكيل المعركة ذراع الفرسان في الجيش.

الرابطة: بعد غزو بلدة أو منطقة معينة ، كان من الضروري أن تتمركز حامية من الفرسان في الإقليم على أنها قوة حراسة متنقلة تخمد الثورات وتقمع التمرد، هذا ما يسمى بالرابطة وكلمة مرابطة لها نفس المعنى.

الكردوس: لم ترد هذه الكلمة إلا في رواية سيف بن عمر عن معركة اليرموك. يقسم هذا الأخير الفرسان إلى عدة كراديس، ويذكر اسم قائد كل منها.

لم يتوافر للمسلمين في فترتهم الأولى سوى عدد ضئيل من الخيول، لكن لا بد أن العدد قد ازداد مع تعاظم مكة ودورها بما أن المكيين كانوا أغنياء يستطيعون توفير قوة فعّالة من الخيالة في ساحة المعركة. ففي موقعة بدر وبعد غزو بني قريظة، لم تتضمن الغنائم سوى القليل من الخيول، بينما لم يرد أي ذكر للخيول في غنائم يوم حنين، رغم الاستيلاء على (6000) جمل. لقد ابتيعت الخيول من غنائم بني قريظة وبني النضير وتضمنت معاهدة السلام مع نجران شرطاً بتزويد المسلمين بثلاثين حصاناً في حال نشوب الحرب. إن الإشارة إلى وجود عشرة آلاف حصان في غزوة تبوك، يدل على مبالغة مستهجنة، خصوصاً وأن الغزوة جرت في وقت تشتد فيه الحرارة مما يزيد الحاجة إلى عدة آلاف من الجمال لإبقاء الخيول على قيد الحياة. لا شك أن عدد الفرسان في القوات العربية بقي صغيراً إلى أن تحققت الانتصارات في معركتي اليرموك والقادسية مما أتاح فرصاً للاستيلاء على الخيول غنيمة. لقد ورد في الروايات أن الخيول كانت جزءاً من غنائم القادسية وجلولاء. كما يبدو أنه قد تمت عدة محاولات منظمة

لتزويد الجيوش الإسلامية بالمزيد من الخيول؛ وقد جمع عمر الأول الخيل من جميع المناطق ليستخدمها في العمليات العسكرية، وتواجد أربعة آلاف منها في الكوفة كما كانت لخيول المسلمين مراع في شمال سورية. وقد قدم عمر إقطاعاً في البصرة لتربية الخيول إلى أول من قام بفطم مهر في البصرة وهو رجل يدعى نافع بن الحارث. رغم ما يقال من أن جميع المسلمين ركبوا الخيول بعد القادسية، يبقى هذا الأمر بعيد الاحتمال ولا يمكن الركون إليه اعتماداً على الرواية القائلة بأن الفرسان الذين اجتازوا النهر في المدائن وصل عددهم إلى (600) ويرجح أن يكون هذا الرقم هو عدد جميع الفرسان العرب في ذلك الوقت. يذكر أن سلاح الفرسان في شمال سورية وفي إيران، اعتبر منفصلاً عن الجيش الأساسي الذي يخضع لقيادة القائد العام. لذلك، فإن سلاح الفرسان بقيادة حبيب بن مسلمة في أرمينيا، جاس البلاد وأخضع الدساكر. كان سلاح الفرسان يرسل لإخضاع إحدى البلدات بينما يتبعه الجيش الأساسي حتى ينضم إليه ثانيةً قبل البلدة. أما في المناطق الجبلية، وعندما يكون الجيش مجتمعاً، كانت تركب الجمال وتجر الخيول على الجانبين. هذا بالطبع امتداد لتقنية البدو التي تقضي عند الغارات بسوق الخيول عند الأطراف حول الجمال ثم يمتطونها قبل الهجوم مباشرةً. هذه الطريقة قديمة جداً اعتمدها الأنباط حلفاء الرومان عند هجومهم على القدس عام (67 م).[9]

في الفترة الأولى، اعتمد المسلمون في معاركهم بشكلٍ كلي تقريباً على سلاح المشاة؛ لكن المكيين امتلكوا خيولاً كافية لتشكيل قوة من الفرسان. ومع ذلك، لم يذكر الفرسان

في بدر سوى عرضياً رغم أن المكيين كان معهم مئة حصان. وتجدر الإشارة إلى أنه لم تسجل أي محاولة لاقتحام صفوف المسلمين بواسطة سلاح الفرسان، كما لم تظهر فاعلية سلاح الفرسان في معركة الخندق إذ أنهم لم يجدوا موطئ قدم لهم في الجانب الآخر من الخندق. أما في معركة أحد، فقد لعب الخيالة بقيادة خالد بن الوليد دوراً مهماً في هزيمة المسلمين، لكنه أيضاً من المهم أن نلحظ عدم قيام الفرسان بأي مواجهة مباشرة مع المسلمين عند موقع دفاعهم على طول منحدرات جبل أحد؛ في حين اعتمد خالد تكتيكاً سليماً يقضي بمحاولة الالتفاف على المسلمين من وراء جبل أحد والتقدم نحو الغرب على طول وادي قناة لكنه صدّ بسرية من النبّالة متمركزة جنوب الوادي عند جبل رماة فلم يكن خالد قادراً على التقدم أكثر لمواجهتهم طالما أنهم لم يفارقوا مواقعهم. في هذه الحالة، كما في المعارك التي كانت تجري أواخر القرون الوسطى، شكلت النبّالة تهديداً خطيراً لفرق الخيالة. ولم يتمكن فرسان خالد من اختراق صفوف أعدائهم إلا عندما ترك معظم النبّالة مواقعهم. فانقضوا إذ ذاك على المسلمين الذين تخلخلت صفوفهم بسبب الانشغال بالغنائم. عندئذ، استطاع الفرسان أن يقاتلوا في ظروف مواتية، إذ أصبح لديهم مساحة واسعة للحركة وللتحكم برماحهم.[10]

في مطلع القرن السابع، كانت الجيوش البيزنطية قد أعيد تنظيمها كي تستطيع مواجهة الأعداء المتنقلين كالبربر. في أعقاب إعادة التنظيم هذه، أصبح سلاح الفرسان في تشكيلات الفرق البيزنطية هو الأكثر عدداً والأفضل تسليحاً. كذلك

الفرس، فقد أصبحوا بفضل فرسانهم الأساورة قادرين على ما يبدو أن ينزلوا إلى ساحة المعركة قوات من الفرسان تفوق بكثير فرق الفرسان العربية. وقد قدّم صاحب كتاب «ستراتيجيكون»[11] وصفاً للأرض المثالية لمعارك الفرسان وهي المفتوحة المنبسطة.

إن حركية الجيوش العربية تفوق إلى حد بعيد حركية أعدائهم في التنقل لمسافات طويلة في الصحراء والأماكن الشديدة الانحدار. لكن هذا التفوق يزول حالما يواجهون أعداءهم في ساحة المعركة. تؤكد الأدلة أن العرب، في المعارك المنظمة الحامية، كانوا يختارون مواقع تساند المشاة المدعومين بالنبّالة ويضيقون المجال أمام استخدام مؤثر للفرسان بأعداد كبيرة. هكذا كان موقف العرب في اليرموك حيث كان أمامهم واد صغير عميق يجري فيه النهر وحيث كان لديهم مجال واسع للانسحاب إلى الجزيرة في حال الهزيمة.[12] ورغم خوض معركة القادسية في سهل، إلا أنّ المسلمين تمركزوا وراء قناة العتيق التي ترتب على الفرس ردمها بالتراب والقصب والأجلال حتى يتمكنوا من عبورها. وقد اتبع العرب هذه الخطة لأنهم كانوا يضمرون الانسحاب، في حال هزموا، إلى الجزيرة حيث سينتظرون الفرصة المواتية لتجديد الهجوم. أما في نهاوند، فليس لدينا سوى معلومات ضئيلة عن تضاريس ساحة المعركة؛ لكن، على ما يبدو، شكل المشاة الجزء الأكبر من الجيش (كانوا قد تدربوا على ربط شريط الحذاء قبل الانضمام إلى المعركة).

يبدو أن الشكوك ضئيلة بالنسبة إلى الدور المهم الذي

قام به المشاة في هذه الانتصارات؛ لكن استناداً إلى المصادر، يصعب التحقق من دور النبّالة وإن كثرت الإشارات إليهم في الروايات المختلفة المتعلقة بغزوات محمد. بالتالي، فعلى الأرجح أن هذا الجانب من الحرب كان مفهوماً جيداً وبوضوح عند العرب. وقد روى فارسي شارك في معركة القادسية أن الرماية العربية كانت أكثر فاعليةً من الفارسية، إذ أن سهام المسلمين خرقت الدروع والخوذ.

بالإضافة إلى الاعتبارات التكتيكية والتضاريسية هناك عامل آخر أثر على طريقة خوض العرب المعركة. فالجيوش العربية تألفت من رجال القبائل البدوية ومن رجال الحواضر، لكن نسبة كل من الفريقين في الجيش اختلفت من معركة إلى أخرى. الآن، تأكد لنا أن أساليب البدو في القتال تختلف بشكل ملحوظ عن أساليب الحضر، إلى درجة أن الخلافات بين البدو والحضر التي لم تكن تفصل بقوة السلاح كانت نادرة. كان أسلوب البدو في القتال هو الغزو، وهي طريقة تعتمد على سرعة التحرك، وعنصر المفاجأة والتملص الخاطف من الملاحقة. بعد رحيل خالد بن الوليد إلى الشام، كانت عمليات المثنى بن حارثة على طول وادي الفرات تعتمد هذا الأسلوب. فقد كانت الهجمات على المستوطنات تنطلق من الصحراء عند الفجر بعد ليلة من السير، وينكفئ المغيرون إلى الصحراء بعد استيلائهم على الغنائم. وقد اقتصرت الغنائم آنذاك على الذهب والفضة والنفائس الأخرى، كي لا يسبب حمل الأشياء الثقيلة تباطؤ الحركة.

كان العرب يعتمدون أساليب أخرى في الهجوم للوصول إلى مآربهم عندما تكون الفرقة الغازية كبيرة ما فيه الكفاية

مقارنة مع قدرة العدو المتوقعة عند المواجهة. تقضي هذه الطريقة بوضع حراس من الفرسان على بوابات البلدة لتفادي أية هجمة مفاجئة يشنها المحاصرون ثم يقوم المهاجمون بالتعرض لأرزاق السكان من خلال الاستيلاء على المواشي بالقوة، وترك الخيل ترعى حقول الذرة، وإتلاف أو التهديد بإتلاف المحاصيل والبساتين. عادة، كان سكان البلدة يستسلمون ويخضعون لطلبات المغيرين التي لم تكن، في العموم، مفرطة. فقد اتبعت هذه الطريقة ضد الحيرة وبلدات أخرى على طول وادي الفرات، وربما كانت الوسيلة التي أدت إلى استكمال غزو بلاد ما بين النهرين إلى الأبد. في هذه الحالة، بالطبع، لم تكن القوات العربية مجرد مغيرين بداة ولم يكن هناك جيش نظامي يضع حداً للنهب الذي قامت به. أما داخل الجزيرة وعلى أطراف الصحراء، فكان ميزان القوى متعادلاً قبل سحق المقاومة البيزنطية والفارسية، إذ لم يشتبك الحضر قط مع البداة في الصحراء المكشوفة ولم يقتحم البداة المستوطنات ويستولوا عليها. ظل هذا الوضع سائداً حتى وقت غير بعيد. كتب دوتي:[13] «كانت حيطان الطين في تيماء كافية للحماية، إذ لم يكن ليخطر في بال أحدهم أن يستعمل البارود، أو جذوع النخل آلة حربية لدك الأسوار».[14]

هكذا، فإن الجيوش العربية تألفت من عنصرين مختلفين لكل منهما طريقته الخاصة في خوض الحروب. كان البدو يتميزون بسرعة الحركة، كما كانوا ماهرين في الهجمات المباغتة، وفي التملص من الملاحقة. وعندما تتوافر الخيول،

كانت تظهر فاعليتهم حتى بأعداد قليلة من الفرسان. لكن يصعب الاعتماد عليهم كمشاة في معركة عنيفة القتال. أما رجال المدائن والواحات، فكانت تنقصهم الخبرة في الغزو، وكان يعتمد عليهم كمشاة في ساحات القتال. لا شك أن التفاوت في ما بينهم كان غير واضح، كذلك كان التفريق بين هذين الفريقين. على الأرجح، لم يكن لدى أي منهما مهارة كافية في حرب الحصار، بينما كان الفريقان قادرين على تكييف أنفسهم والعمل فرساناً عند توافر عدد كبير من الخيول. مع ذلك، تعتبر التفرقة حقيقية إلى حد بعيد لأنها أثرت على سير الأحداث في السنوات الأولى للغزوات.

يقال أن أنصار النبي قد تحملوا في معركة اليمامة عبء القتال لأن رجال القبائل كانوا عديمي الفاعلية، كما تذمر عمرو بن العاص، في عين شمس، من أن ‹رجال اليمن› لم يقوموا بالدور المناط بهم. وقيل لنا أنه اضطر للاعتماد على الأنصار من أجل تحقيق النصر. هذه الإشارات تدعم الفرضية التي تعتبر أن القلب المقاتل في الجيش تالف من الحضر في البلدات والواحات الذي كان جيش مشاة، وهو الذي وقف وراء تقويض قوة البيزنطيين والفرس في معارك المواجهة المنظمة.

عندما كان سلاح الفرسان يشارك في الحرب، كان موقعهم يختلف في ترتيب المعركة: فهم أحياناً على الجناحين وأحياناً أخرى في مقدمة القوة الأساسية للجيش. غالباً ما سبق هجوم الفرسان إطلاق قذائف، لكنه يقال أن معركة القادسية بدأت بهجوم للفرسان، بالمطاردة التي تكررت ثلاثين مرة. يبقى

من الصعب التصديق بأن الفرسان في القادسية كانوا فعّالين في ساحة المعركة خصوصاً وأن أعدادهم كانت محدودة.

وقد وردت بعض التفاصيل في الروايات عن المواجهة بين الفرسان، كما تتكرر الإشارة إلى الجنود المشاة الذين تعرضوا لهجوم من الفرسان. نجد أيضاً وصفاً لخالد بن الوليد في أحد وهو على ظهر حصانه بين المسلمين يقتلهم برمحه بعد أن عمت الفوضى صفوفهم. كما عرف الفرسان آنذاك المبارزة وكانوا يمارسونها بأسلوب يشبه تقارع الفرسان الذي كان مألوفاً في أواخر العصور الوسطى.

جدوى سرعة الحركة

لا بد من التمييز بين أسلوب قتال العرب في المعارك المخطط لها، وبين تكتيكهم في حملات الإغارة. لقد توالت هذه الغارات قبل نهاوند وبعدها، كالغارات التي جرت خلال فتح بلاد ما بين النهرين والغزو الأول لأذربيجان وطبرستان وخراسان. وتشير دلالات كثيرة إلى أن هذه الحملات كانت من نوع الغزو، وباستثناء بلاد ما بين النهرين، لم تفتح آنذاك أية أراض أخرى بشكل نهائي. إذ عند صمود القلاع، كان الغزاة يتراجعون. كما قيل أن البلدات عرفت تمرداً بعد الفتح في تلك الفترة، ولم تخضع من جديد إلا بعد فترة من الزمن. لكن على الأرجح أن المغيرين الأوائل لم يعمدوا إلى فرض الإتاوات قبل أن يتابعوا مسيرتهم. لاحقاً، في أيام عثمان، تمركزت فرق عسكرية من الكوفة في المناطق الحدودية المعروفة بالثغور، حيث انتشر في هذه المواقع عشرة آلاف

رجل. كان عدد الرجال المقاتلين في الكوفة أربعين ألفاً، فكانت الفرصة لكل مقاتل للحصول على الغنيمة كل أربع سنوات. في الفترة نفسها، عاد الوليد إلى الكوفة بعد حملة أغار فيها على أذربيجان، وجيلان، وموقان. بالتالي، فإن الاختلاف واضح جداً بين مثل هذه الحملات، حيث وصل الاعتماد على الحركية في الانتقال البعيد المدى إلى أقصاه، وبين المعارك المخطط لها كبدر، وأحد، واليرموك، والقادسية.

لا بد من التأكيد على أن حركية العرب كانت فعّالة إلى أقصى حدود لدى تواجدهم في ما يشبه محيطهم الطبيعي، أي الصحراء. حتى في الجزيرة العربية، واجه الخيالة عوائق طبيعية وجدوا صعوبة في التعامل معها. من هذه العوائق، الحرّة (ومعناها الأرض البركانية)؛ ففي معركة الخندق، لم تحتج المدينة إلى حماية إضافية من الجهة التي تحوطها الحرة بما أنه يتعذر اجتياز هذه الأراضي. والخندق بحد ذاته كان وسيلة بسيطة وكافية، إذ أربك تماماً الفرسان المكيين المعتادين على الصحراء المفتوحة. في الطريق إلى الحديبية، واجه الجيش الإسلامي صعوبات في مسيرته بسبب طبيعة هذه الأراضي الوعرة التي يقطعها علة شعاب، وحيث تشكل الأودية عوائق أمام التحرك، عندما يكون أسفلها موحلاً بعد تساقط الأمطار. وعندما تتساقط هذه الأمطار بغزارة، يتحول أسفل الوادي إلى سيول جارفة. حتى الصحراء كانت مخيفة عندما كانت مجهولة وخالية من الماء. لقد وصف أحد الشعراء مشقة السفر في الصحاري الشمالية حيث تتحول الجمال القوية إلى ضعيفة، وحيث تمددت هياكل عظمية عديدة

لحيوانات ماتت هناك؛ ويضيف هذا الشاعر أن أي قوة على الجمال كانت تعاني كثيراً من العطش عند اجتيازها صحراء الدهناء الضيقة.

كان العرب قد اعتادوا على مواجهة مثل هذه الصعوبات والتغلب عليها؛ لكنهم خرجوا من محيط شبه الجزيرة المألوف لديهم، أصبح كل عائق جديد بحد ذاته حاجزاً مريعاً يتطلب التغلب عليه جهداً ذهنياً كبيراً، يوازي على الأقل الجهد الجسدي. هذه المخاوف تنعكس في الاهتمام الذي لاقته مثل هذه الحوادث في المصادر المختلفة. فالطبري مثلا خصص عدة صفحات كتب فيها عن اجتياز الدجلة في المدائن ويصف العملية كلها على أنها محفوفة بالصعوبات والمخاطر. وفي مناسبة أخرى، لم يستطع العرب اللحاق بالفرس الذين كانوا في مراكب، لأن المياه حالت دون ذلك. فالمسلمون الأوائل لم يتصفوا بالمهارة في إقامة الجسور، فكان عليهم أن يطلبوا خدمات السكان المحليين كي يقوموا بهذا العمل.[15] كان بإمكان حركة الفرق المحمولة على الجمال أن تصل إلى أوجها في إفريقية الشمالية وفي الصحاري العراقية والسورية إذ أن الظروف في الصحراء السورية مواتية خصوصاً لتحرك فرق كبيرة من جنود يركبون الجمال، بالتحديد في المناطق التي تقل فيها العوائق مقارنةً مع بعض أجزاء الجزيرة العربية. أما في بعض أجزاء من مصر والعراق، وفي فارس وآسية الصغرى، فقد أعاقت المستنقعات والأنهار حركة الجند في المناطق القريبة من مجاري الأنهار، وفي المرتفعات أعاقتها الجبال والأنهار. في هذه المناطق، كان على العرب أن

يكيفوا أنفسهم مع نوع جديد من الحروب يخلو من سهولة الحركة التي كانوا ينعمون بها في الصحراء. في مثل هذه الأوضاع، لم تكن سرعة التحرك عندهم أفضل من أعدائهم.

فضلاً عن ذلك، فإنه في السنوات الأولى من الحرب في هذه المناطق، كان العرب دون شك أقل مهارة من أعدائهم في استخدام الفرق الكبيرة من الفرسان. من الناحية التقنية ومن الناحية العددية لم يستطع الفرسان العرب مواجهة أعدائهم مواجهة الند للند، لأن تصميم الدروع التي كانت تحمي أجسادهم ودروع الخيل، خصوصاً الركاب، لم يكن بالمستوى المطلوب. كما لم يستطع الفرسان العرب من استعمال القوس والنشاب بشكل فعّال من على ظهور الخيل. وقد حدث مرة في أصفهان، أن فرقة من الفرسان العرب لم تستطع أن تشتبك مع فرقة فارسية لأن الفرس هددوا باستعمال أقواسهم. وفي عدة مناسبات، تفادى العرب الهزيمة باتخاذهم موقعاً دفاعياً قوياً من أجل التقليل من فعّالية سلاح فرسان العدو. وعلى سبيل المثال، عندما تعرض الأحنف بن قيس لضغط شديد في طخارستان السفلى، تمركز هذا الأخير في ممر ضيق يحده من اليسار جبل، ومن اليمين نهر مرغاب.

لم يكن العرب دون المستوى المطلوب فيما يخص سلاح الفرسان الكبير فقط، بل أيضاً، لم تكن لديهم المهارة الكافية في حروب الحصار. لكنهم، ما لبثوا أن كيفوا أسلوبهم في خوض الحرب، وصفحات هذه المقالة لا تكفي لمناقشة كيف قاموا بذلك، باستثناء الإشارة إلى أن هذا التكيف تضمن استخدام فرسان غير العرب. على الأرجح أن هذا التطور الذي

بدأ باكراً مع أول حملة على خوزستان عام (17 هـ) قد أدى في النهاية إلى تشكيل جيوش مسلمة مختلفة اختلافاً واضحاً في تشكيلها وتقنيتها عن الجيوش التي اجتاحت سورية والعراق ومصر.

بالتالي، إذا أردنا أن نبحث في الأسلوب الذي جعل العرب يحرزون تقدماً على أعدائهم باستغلالهم حركيتهم المتفوقة التي أنعم بها عليهم الجمل الوحيد السنام، فلن نتوصل إلى شيء ذي قيمة من خلال النظر في الحملات على فارس وأرمينيا وآسية الصغرى؛ كما أننا لن نكتشف من خلال دراسة المعارك المنظمة الحاسمة أية أفضلية للعرب ناتجة عن تفوق حركيتهم إذ لم يلعب تفوق الحركية دوراً ذا أهمية سوى في القيادة الاستراتيجية للحملات على سورية والعراق ومصر.

لقد ترجم هذا التفوق في طرق عديدة كلها متصلة بحقيقة أساسية هي أن العرب كانوا قادرين على اجتياز مسافات طويلة وبسرعة، وعلى الإفادة من الصحراء كممر وكقاعدة للغارات وكملجأ وملاذ. هكذا، استطاع المثنى بن حارثة الإغارة على بلدات الفرات والإفلات من العقاب والتملص من الملاحقة بلجوئه إلى الصحراء. وحتى بعدما هزم المسلمون في معركة الجسر، لم يتجرأ الفرس على أن يعززوا انتصارهم بملاحقة العرب داخل الصحراء. قبل معركة القادسية، كانت استراتيجية العرب معروفة وهي أن يقاتلوا الفرس عند حدود الصحراء والبلدة حتى يتمكنوا، في حال الهزيمة، من التراجع داخل الصحراء دون الخوف من أن يلحق بهم العدو حيث ينتظرون الفرصة المواتية للهجوم. وهكذا، فإن مؤخرة الجيش العربي

وخطوط المواصلات كانت في مأمن من أي تدخل للعدو، كذلك كان إرسال الدعم بعيداً عن أي خطر، كما كانت العائلات تترك آمنة في أماكن تتوافر فيها المياه في الصحراء. ثم عند تحقيق العرب للنصر كان ذلك يبشر بنهاية الإمبراطورية الساسانية، بينما أي انتصار للفرس لم يكن ذا أهمية.

والأهم من ذلك كله، كانت للعرب قدرة على حشد قواتهم بسرعة عند اشتداد الخطر. فقد كانت لتحركات الجيوش العربية تأثير كبير على نتائج الحملات، ونذكر على سبيل المثال انتقال خالد بن الوليد وجنوده من العراق إلى سورية، والتحرك السريع للقوات العربية المتناثرة من أجل مواجهة التهديد البيزنطي في أجنادين، وإرسال الزبير بن العوام على رأس (12) ألف رجل لدعم عمرو بن العاص في مصر. لقد وثقت هذه الأحداث الدراماتيكية توثيقاً جيداً، إلا أن عدداً كبيراً من الحوادث الثانوية التي كان لها تأثير على النتائج النهائية لا نعرف عنها سوى القليل. يبقى في بالنا أن تمزق اتصالات العدو، وانعزال مدنهم المحصنة، والهجمات المفاجئة على تجمعات المسيحيين العرب، كل هذا خلق وضعاً كان دون شك مضراً بمعنويات العدو ومهدماً لإمكانياته العسكرية.

من الصعب تقدير أثر دقة الاتصالات على مجرى هذه الفتوحات وعلى عواقبها المباشرة. لا شك أن جزء من القدرة على حشد القوات بشكل فعال يعتمد على انتقال المعلومات بسهولة بين القادة الذين قد يفصل بينهم أحياناً عدة أميال. على مستوى آخر، ذكر مراراً في المصادر عن تبادل إرسال

الجيوش بين قادة الميادين والخليفة. في معظم الأحيان، نجد أن الحديث عن دور عمر الأول في إدارة العمليات مبالغ فيه، إذ يقال غالباً أنه كان يعطي تعليمات حول المسائل التكتيكية والأهداف المحلية وهي تعليمات لا يمكن أن يقررها سوى قادة الجيش في ساحة المعركة. مع ذلك، لا شك أن عمر كان على اطلاع دائم على الأحداث المهمة، والأرجح أن أوامره فيما يخص المسائل الاستراتيجية المهمة وتعيين الولاة، والترتيبات الإدارية للأراضي المفتوحة كانت كلها مستجابة.

لذلك، فإن تفوق حركية العرب كان أحد العوامل الأكثر أهمية في تأمين النصر خلال الفتوحات الأولى. في سياق أوسع، يمكننا القول بكل ثقة انه لولا تدجين الجمل الوحيد السنام لم تكن الفتوحات لتتحقق أبداً لأن حياة العرب كانت بدوية تعتمد في تنقلها على الجمل، فاستطاع هؤلاء تعبئة قوات كافية لغزو أراضي الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية وهم يأملون بالنصر. لو أن الحضارة السائدة انحصرت في زراعة الواحات في مناطق منعزلة بعيدة كل البعد الواحدة عن الأخرى لما كان ممكناً دمج القوات ولا انتقال المجموعات الكبيرة.

* * *

هوامش: «دور الجمل والخيل . . . . .»

* D. R. Hill, "The Role of the Camel and the Horse in the Early Arabic Conquests", in: V. J. Perry and M. E. Yapps, (eds.), War, Technology and Society in the Middle East, pp. 32-43. New York, Oxford University Press 1977.

1) تم الاعتماد في هذه الدراسة على المصادر العربية الإسلامية الأولى، وعلى

رأسها كتابات البلاذري والطبري وبد الحكم واليعقوبي وابن اسحق.

2 - Cf. Jean Evêque de Nikiou, Chronique, ed. And trans. M. H. Zotenberg (Paris, 1883).

3) للإطلاع على تطور تربية الجمل تاريخياً، أنظر المراجع الآتية:

EI2, s. v. Badw; L'antica societ? ,ed .F .Gabrieli (Rome, 1959), V. Monteil, Essai sur le chameau (Ifan Mauretania), (1952).

4 - Cf. C. Ritter, Vergleichende Erdkunde von Arabien (Berlin, 1847), ii. 640.

5 - Cf. W. Thesinger, Arabian Sands (London, 1959), 17.

6 - Cf. A. Musil, Arabia Deserta (New York, 1927), 120.

7 - Cf. A. Musil, Northern Negd (New York ,1928), 145.

8 - Cf. C. M .Doughty, Travels in Arabia Deserta (London, 1936), ii. 553.

9 - EI2, s. v. Badw.

10 - Cf. M. Hamidullah, 'Les champs de bataille au temps du prophête', in Revue des Etudes Islamiques, xiii (1939), 5-8.

11 - strategikon. Cf. L'Armée byzantine ? la fin du VIe siécle d'après le Strategikon de Maurice, trans. F. Aussaresses (Paris, 1909), 9.

12) من ناحية أخرى، فمن المحتمل أن البيزنطيين اعتبروا اليرموك خطاً دفاعياً في مواجهة الغزو العربي. لكن هذا لا يغير من حقيقة أن العرب خاضوا المعركة، وانتصروا فيها، على أرض كانت أكثر مناسبة للمشاة منها إلى الخيالة. أنظر المرجع التالي:

J. B. Glubb, The Great Arab Conquests (London, 1963), 173 ff.

13 - Doughty.

14 - Cf. Doughty, Arabia Deserta, ii. 329.

15 - Jean de Nikkiou, 559.

إصدارات قدمس للنشر والتوزيع

الدراسات الآتي ذكرها مجموعة كتيبات تحوي بمعظمها ترجمة دراسات وأبحاث نشر أكثرها في دوريات متخصصة، تتعلق ببلادنا وقضايانا التاريخية والمعاصرة. منها التالي ذكرها:

دراسات قُدْمُس (1): كمال الصليبي في حوار مع زياد منى عن مقولاته في نصوص التوراة والإنجيل (أيلول 2001 م).

دراسات قُدْمُس (2): الإبيونيون وورقة بن نوفل والإسلام. تأليف: زياد منى(أيلول 2001 م).

دراسات قُدْمُس (3): 1) معركة القادسية. تأليف: س. م. يوسف. 2) معركة اليرموك: إعادة تركيب. تأليف: ج. جندارا. 3) معركة هليوبوليس. تأليف: ألفرد بَتلَر. 4) تطورات فنون الحرب الإسلامية: الفتوحات الأولى. تأليف: ج. جندارا. 5) دور الجمل والخيل في الفتوحات العربية المبكرة. تأليف: د. ر. هل). ترجمة: ميسون الحجيري؛ مراجعة: زياد منى (أيلول 2001 م).

دراسات قدمس (4): 1) أشكال توظيف الماضي. علم الآثار في خدمة الدولة. تأليف: دون فولر. 2) من الدمار إلى العمار: أثر مفهوم توراتي في علم الآثار الشرق أوسطي. تأليف: نيل سلبرمن. 3) الآثاريات الكتابية والصحافة: صياغة التصورات الأمريكية لفلسطين في العقد الأول من الانتداب. تأليف: لورنس دفلسن (أيلول 2001 م). ترجمة: فاضل جتكر. مراجعة: زياد منى (أيلول 2001 م).

دراسات قُدْمُس (5): "عودة" اليهود في الفكر البروتستانتي الإنجليزي (1790 – 1840 م). تأليف: مير فريته، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (أيلول 2001 م).

دراسات ثلمُس (6): 1) (آشور) و(سورية) مترادفتان. تأليف: ريتشارد فراي، 2) كنعان، فينيقيا، أرجوان. تأليف: ميخائيل أسطور، 3) أباطرة وشيوخ رومان من المشرق العربي. تأليف: غلن بَوَرسوك 4) فيليب العربي والمسيحية. تأليف: هانز بولزَنْدَر. 5) حول أصل اسم العرب (Saracens) في اللاتينية. تأليف: ديفيد غرافس، م. أكنُر. ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (أيلول 2001 م).

الألفية والمستوطنات الزراعية في الأرض المقدسة في القرن التاسع عشر. تأليف: ر. كارك، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

أورشليم داود: التلفيق والحقيقة. تأليف: مارغريت شتاينر، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

حول نقش "بيت دود (داود)". تأليف: كمال الصليبي، ترجمة: زياد منى (تحت الطبع).

جغرافية سفر التكوين (14) في عسير. تأليف: كمال الصليبي، ترجمة: زياد منى (قريباً).

مشكلة (داود وجليات). تأليف: كمال الصليبي، ترجمة زياد منى (قريباً).

الفرار من "أورشليم". تأليف: كمال الصليبي، ترجمة: زياد منى (قريباً).

مسألة" أورشليم". تأليف: كمال الصليبي، ترجمة: زياد منى (قريباً).

ملاحظات جغرافية ولغوية على التوراة. تأليف: كمال الصليبي، ترجمة: زياد منى (قريباً).

مقاطع متطابقة من العهد القديم والشعر العربي. تأليف: فراي هر فون غال، ترجمة: زياد منى (قريباً).

النبي محمد وهرقل. تأليف: أ. شارف (قريباً).

"بيت داود <دود>" مبني على الرمال. تأليف: فيليب ديفس: ترجمة: زياد منى (قريباً).

بين المنهجية والجنون: عن توظيف التوراة مرجعاً تاريخياً. تأليف: فيليب ديفس: ترجمة: زياد منى (قريباً).

(نَفَق سلْوان) هلنستي. تأليف: فيليب ديفس: ترجمة زياد منى (قريباً).

الإسلام في الكتابات البيزنطية. تأليف: فولفغانغ آيشنَر (قريباً).

الحركات الدينية في شمالي جزيرة العرب قبل الإسلام. تأليف: أ. شبرنغر (قريباً).

البحث عن الحلقة المفقودة: الآثار والرأي العام في لبنان. تأليف: هلغا سيدن (قريباً).

موقفَ العربَ من بيزنطة: الرسمي، الشعبي، العلمي. تأليف: أحمد شبول (قريباً).

هل "عبرية" التوراة لغة؟ تأليف: إرنست أكسل كناوف؛ مراجعة: زياد منى (قريباً).

الحركة الصهيونية والماسونية. تأليف: ميم كمل أكه (قريباً).

الأتراك والصهيونية وقضية فلسطين. تأليف: ميم كمل أكه (قريباً).

لبنان المسيحي: موقف البابوية – متطلبات الحماية الفرنسية (1840-1847 م). تأليف: الأب جوزيف حجار. ترجمة: عبدو مصلح (قريباً).

كتب قَدْمُس للنشر والتوزيع:

ماركو بولو: هل وصل إلى الصين؟ تأليف: فرنسس وود ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تشرين الثاني 1999 م).

لبنان القديم. تأليف: كارلهاينز برنهردت، ترجمة: ميشيل كيلو؛ مراجعة: زياد منى (تشرين الثاني 1999 م).

النهايات: الهوس القيامي الألفي. تأليف: ديتر تسمرلنغ، ترجمة: ميشيل كيلو؛ مراجعة: زياد منى (تشرين الثاني 1999 م).

تلفيق إسرءيل التوراتية، طمس التاريخ الفلسطيني. تأليف: كيث وايتلام، ترجمة: ممدوح عدوان؛ مراجعة: زياد منى (آذار 2000 م).

قديسات وملكات من المشرق السرياني وجزيرة العرب. تأليف: سبَستيَن برُك وسوزان هارفي، وغلِن بَوَرْسُك ترجمة: فريلة بولس

وميسون الحُجيري. راجعها وقدم لها: المطران مار غريغوريوس يوحنا إبراهيم متروبوليت حلب للسريان الأرثوذكس. الطبعة الأولى: (آب 2000 م).

المسيحية والعرب. تأليف: نقولا زيادة. الطبعة الأولى: (تموز 2000 م). الطبعة الثانية: (آب 2000 م). الطبعة الثالثة (أيلول 2001 م).

النظرية السياسية بين اليونان والإسلام. تأليف الدكتور عبد الوهاب مروان (تشرين الأول 2000 م).

الشعر العربي المغنى: دراسة تحليلية لموسيقى الشعر. تأليف: المقدم الدكتور إيليا فرنسيس (كانون الثاني 2001 م).

بحثاً عن إله ووطن: صراع الغرب على فلسطين وآثارها (1799-1917 م). تأليف: نيل سلبرمن، ترجمة: فاضل جتكر، مراجعة: زياد منى (آذار 2001 م).

شاركتُ في الخديعة. تأليف: سلوى النعيمي (آذار 2001 م).

الماضي الخرافي: التوراة والتاريخ. تأليف: توماس طُمسُن، ترجمة: عدنان حسن. مراجعة: زياد منى (آذار 2001 م).

خالد وعمر: بحث نقدي في المصادر عن التأريخ الإسلامي المبكر. تأليف: كلاوس كلير، ترجمة: محمد جديد (تموز 2001 م).

بنية المسلسل الدرامي التلفزيوني: نحو درامية جديدة. تأليف قيس الزبيدي (تحت الطبع).

طب العيون عند العرب: تاريخ وأعلام. تأليف: نشأت الحمارنة (تحت الطبع).

الكتاب والاستعمار: السطو على الأرض في التوراة. تأليف: مايكل برير، ترجمة: أحمد الجمل (تحت الطبع).

الصهيونية المسيحية. تأليف: بول مركلي. ترجمة: فاضل جتكر. (تحت الطبع).

بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة. تأليف: وولتر كغي، ترجمة: نقولا زيادة (تحت الطبع).

الظاهر بيبرس. تأليف: بيتر ثوراو، ترجمة: محمد جديد (تحت الطبع).

الحرب البحرية والسياسة البحرية بين الإسلام والغرب. تأليف: إ. آيكوف (قريباً).

الحمّام في العصر العربي - الإسلامي الوسيط: دراسة ثقافية تاريخية. تأليف: هاينز غرتسفلد (قريباً).

هزيمة المسيحية، خطاب "العودة" واليهود. تأليف: د. أولستر (قريباً).

الطوائف المسيحية في فلسطين من الحكم البيزنطي إلى الفتح الإسلامي - دراسة تاريخية وأثرية. تأليف: روبرت شك (قريباً).

غوته والعالم العربي. تأليف: كاتارينا مُمزن (قريباً).

المولوخ - نظرة نقدية لتاريخ الولايات المتحدة. تأليف: كارلهاينز دشنر (قريباً).

بحثاً عن بني إسرءيل. تأليف: فيليب ديفس (قريباً).

إفريقية واكتشاف أمريكا. تأليف: ليو فينّر. (قريباً).

الفتوحات الإسلامية الأولى. تأليف: فرد دونّر (قريباً).

حكايات آرامية من معلولا (قريباً).

الغرب والإسلام - صورة العرب في الغرب وتشكلها في العصر الوسيط المبكر. تأليف: إكهارت روتر (قريباً).

حكومات المسلمين. تأليف: عزيز العظمة (قريباً).

الجنس استشراقياً - قراءة في خطاب الغرب عن الشرق كآخر. تأليف: إرفين كميل شك (قريباً).

الإسلام في عيون الآخرين. تأليف: روبرت هويلاند (قريباً).

الكهانة بين العرب قبل الإسلام. تأليف: توفيق فهد (قريباً).

كمال الصليبي وتوماس طمسن في حوار مع زياد منى حول "جغرافية التوراة" وتاريخ فلسطين القديم (قريباً).

تاريخ القدس (حتى عام 135 م). زياد منى (قريباً).

التلمود: مدخل وشروح. تأليف: هرمان شترَك ترجمة: زيد منى (قريباً).

فلسطين في العقل السياسي الأمريكي. تأليف: كاثلين كرستسن (قريباً).

المسيحية والعروبة (وثائق مختارة). تأليف: د. فيكتور سحاب(قريباً).

عبد الله وشرق الأردن بين بريطانيا والحركة الصهيونية. تأليف: ماري ولسن. ترجمة: فضل الجراح (آب 2000 م). صدر عن: شركة قُدْمُس للنشر والتوزيع (ش. م. م) - بيروت.

جذور الوصاية الأردنية. تأليف: سليمان بشير. يصدر عن شركة قُدْمُس للنشر والتوزيع (ش. م. م) بيروت. (تموز 2001 م).

يضم هذا الكتيب ثلاث دراسات عميقة كتبها أهل الاختصاص، كل على حدة، وفي فترات زمنية متباينة، عن معارك رئيسة خاضها العرب في صدر الإسلام، وكلها تشدد على دور العبقرية العسكرية في تحقيق تلك الانتصارات.

يتم تأكيد تلك العبقرية في دراستين رائدتين تاليتين عن تطور فنون القتال عند العرب المسلمين ونجاحهم في الاستفادة من تجارب محيطهم الحضاري بالخصوص واستيعابهم المستمر لما مروا به من تجارب عسكرية.